

مُهَاجِرَاتُ الْمُهَاجِرِينَ

الفساد السياسي  
في  
المجتمعات العربية والإسلامية  
(أزمة الشورى)

طبعة جديدة ومحققة

30



**العنوان:** الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية (أزمة الشورى).

**المؤلف:** الشيخ/ محمد الغزالى .

**إشراف عام:** داليا محمد إبراهيم .

**تاريخ النشر:** يناير 2005 م.

**رقم الإيداع:** 15365 / 2003

**الترقيم الدولي:** ISBN 977-14-2392-4

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى - الممهندسين - الجيزة  
ت: 3466434 (02) 3472864 - فاكس: 3462576 (02) ص.ب: 21 إمبابة  
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmistr.com

المطبع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر  
ت: 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)  
البريد الإلكتروني للمطبع: press@nahdetmistr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقى - الفجالة -  
القاهرة - ص . ب : 96 الفجالة - القاهرة.  
ت : 5908895 (02) - فاكس: 5909827 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222  
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales@nahdetmistr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)  
ت: 5230569 (03)

مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف  
(050) 2259675

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmistr.com  
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)  
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع  
[www.enahda.com](http://www.enahda.com)

**جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع**  
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية  
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

## مقدمة

### بِقَلْمِ الْمُؤْلِفِ

ما زلت أعتقد أن ثروتنا من المواهب الثمينة والكفاءات المشمرة كبيرة ، وأن حظوظنا من تلك المعادن النفيسة لا تقل عن مثيلاتها لدى الدول العظمى . . . !!

كل ما هنالك من فروق أن غيرنا انتفع بما يملك ، وأتاح الفرصة لبقاءه ونائه ، وعملت الحريات الموفورة عمل الأشعة في إنصاص الزرع ، وعمل المياه في إمداده بالنضارة والحياة . . .

أما في أرجاء العالم الإسلامي فإن الحكم الفردي - من قديم - أهلك الحرف والنسل ، وفرض ألواناً من الجدب العقلي والشلل الأدبي أذوت الآمال ، وأفاقت الرجال . . .

والغريب أن هذا التحرير ينافي مناقضة ظاهرة توجيهات الإسلام في كل ناحية ! هل في دين الله أهم من العقيدة ؟ لا ! إن الاعتقاد في المنطق القرآني نبت وسط حرية البحث والتأمل وطلب البرهان ! ولننظر إلى حديث القرآن عن المشركين ، ونتأمل في مساره ، يقول الله سبحانه : ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلَهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَّعِيَ وَذِكْرٌ مَّنْ قَبْلِي﴾ [الأنياء: ٢٤].

ليس هناك مجال لإلغاء العقل ورفض الرأي الآخر ، لا بد من تبادل الحجج ونشدان الحقيقة وحدها . . . لا مكان لتكميم الأفواه وفرض وجهة نظر واحدة .

صاحب الصواب لا يهاب النقاش ، صاحب الحق يُغشى به المجالس ، ويُقرع به الآذان .

المأساة تحدث من مُبطل يريد بالعصا أن يخرس الآخرين ، ومع تفاهة ما عنده يقول مقالة فرعون قديماً : ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيْكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرُّشَادِ﴾ [٢٩] [غافر: ٢٩]

فإلى أين قادهم؟ إلى الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة؟! . إن الاستبداد السياسي يُبَيِّد كل أسباب الارتقاء والتقدير ، ولا تصلح الحياة ب الرجل يزعم العلم بكل شيء ، ويتهمن الناس كلهم بأنهم دونه وعيًا وفهمًا ..

لقد نهضت دولة الخلافة على دعائم الشورى ، وكان المبدأ المقرر عند كل خليفة : «إن رأيتم خيرًا فأعینوْنی، وإن رأيتم شرًا فقوْمُونی» . ومن هنا أرست دعائم الحق إلى قيام الساعة .

والدول الكبرى الآن ليس فيها مكان للتفرعن والادعاء الأعمى ، إن هذه الآفات للأسف تكثر في الدولات التي تعيش في غيبة التخلف والاستسلام بخلافها .. وهذا الكتاب صيحة تحذير من غياب الشورى ، واستخفاء الحريات العامة ، وإهانة كرامات الشعوب .

محمد الغزالى

## الباب الأول

ضوء على تفكيرنا الديني

بعض المرضى يحتاج إلى صدمات كهربائية لتصحيح وعيه ، وإيقاظ ما تحدى من حسه .. والمسلمون يحتاجون إلى أمثال هذه الصدمات ؛ كى يحسوا الخلاص مما حل بهم . والسير على نهج يشبه أو يقارب نهج الراشدين من أسلافهم !!

إن أمتنا الآن جزء كبير من العالم النامي .. تخلفها الحضارى لا ريب فيه .. ومظاهر التقدم المجلوبة من هنا ومن هنا عارية قد تسترد .

إنها ليست إفرازاً لكيانها الخاص ، ولا أثراً لنشاطها الأصيل .

ما الذى أوصلنا إلى هذا الدرك ؟ إن التقدم والتأخر ليس حظوظاً عمياء !! إن ما نزل بنا هو نتائج لخدمات طال عليها الأمد .. وعلل هذت قوانا جيلاً بعد جيل ! .. وبعض الأجسام يصيبها فى سن مبكرة مرض شديد .. ولكن عافية الشباب تهزمه .. فتكمن الجرثومة متربصة الفرص السوانح لتشب عندما تريد .. ملحقة بالجسم ما تشاء من عطب .. ! وأمتنا الكبيرة تعرضت لأدواء وبيئة خلال عصورها الخوالى .. وقد قاوم كيانها الصلب هذه الأدواء ، وبدا للعين المجردة كأنه سليم معافى .. ولكن الجراثيم الخانسة بزرت من مكانها خلال القرون الأخيرة .. فلما اصطدمت بنا القوى المعادية للإسلام فضحتنا المعارك فى كل ميدان ، وسقط المسلمون بين المحيطين الأطلسي والهادى وبين أواسط أوروبا وأسيا شمالاً . وجزائر إندونيسيا والفلبين والمحيط الهندى وأقطار ما تحت الصحراء الكبرى جنوباً ..

إن هذا الكيان الإسلامى تهوى تحت ضربات المغيرين ، وأصبح بين عشية وضحاها أسيراً تدميه القيود ، ويرهقه الإذلال ..

لقد حدث هذا .. وكان لا بد أن يحدث .. لأن المسلمين فقدوا أسباب التمكين فى الأرض فعصفت بهم الرياح الهوج .. إن الرياح مهما اشتدت لا تنقل الجبال .. ولكنها تنقل كثبان الرمال ..

وإذا كنا على أبواب نهضة حقة فلندرس بدقة وبصيرة أسرار ما أصابنا .. فإن العافية لا تيسر بدواء مرتجل .. والنصر لا يجيء باقتراح مرتجل .. إن الأسلاف تصدروا قافلة العالم بجدارة .. والأخلاف ملئوا ذيل القافلة بجدارة أيضاً .

وقد تأملت في أحوال ناس يعملون في الحقل الإسلامي ، ويتحمسون لنصرة دينهم .. ولكنهم يحملون في دمائهم جرائم الفوضى القديمة ، والجهالة المدمرة .. فأدركت أن هؤلاء يتحركون في مواضعهم ، وأنهم يوم يستطيعون نقل أقدامهم فسيتجهون إلى الوراء إلى الأمام ، وسيضيفون إلى هزائمنا الشائنة هزائم قد تكون أنكى وأخزى .

من أجل ذلك رأيت استشارة الهمم لبدء نهضة واعية هادية ، تعتصم بالوحى الأعلى . وتأسى بالرسول صلى الله عليه وسلم وصحابه ، وتنتفع بتجارب القرون الأربعة عشر التي مرت بنا .

قد تقول : وهل يخالف أحد في هذا حتى تتناوله بالغمز واللمز ؟  
وأجيب : إن أحداً لن يجرؤ على هذه المخالفة بقوله .. ولكنه بفراغ فكره ، أو فساد باطنه قد يجر الكوارث على الكتاب والسنة ، ولا يزيد الطين إلا بلة ..

\*\*\*

الفساد السياسي مرض قديم في تاريخنا ، هناك حكام حفروا خنادق بينهم وبين جماهير الأمة .. لأن أهواءهم طافحة .. وشهواتهم جامحة .. لا يؤمنون على دين الله ، ولا دنيا الناس .. ومع ذلك فقد عاشوا أماداً طويلاً .

وقد عاصرت حكامًا تدعو عليهم الشعوب ، ولا نراهم إلا حجارة على صدرها توشك أن تهشمها .. انتفع بهم الاستعمار الشرقي والغربي على سواء ، ففي منع الجماهير من الأخذ بالإسلام والاحتکام إلى شرائعه .. بل انتفع بهم في إفساد البيئة حتى لاتنبت فيها كرامة فردية .. ولا حرية اجتماعية .. أياً كان لونها .



ومع هذا البلاء فقد رأيت منتبين إلى الدعوة الإسلامية يصورون الحكم الإسلامي المنشود تصويراً يثير الاشمئزاز كله .. قالوا : إن للحاكم أن يأخذ برأى الكثرة ، أو رأى القلة ، أو يجنب إلى رأى عنده وحده ... !

أهذه هي الشورى التي قررها الإسلام؟ فما الاستبداد إذن؟! .

### معايير الدساتير الموضوعة:

ووضع بعضهم دستوراً إسلامياً أعطى فيه رئيس الدولة سلطات خرافية لا يعرفها شرق ولا غرب .. وعندما تدبرت هذا الكلام وجدت أن معايير ثلاثة تلتقي فيه :

الأول : سوء فهم لمعنى الشورى ، وغباء مطلق في إنشاء أجهزتها المشرفة على شئون الحكم .

الثاني : عمى عن الأحداث التي أصابت المسلمين في أثناء القرون الطوال . والتي نشأت عن استبداد الفرد .. وغياب مجالس الشورى .

الثالث : جهل بالأصول الإنسانية التي نهضت عليها الحضارة الحديثة ، والرقابة الصارمة التي وضعت على تصرفات الحاكمين .

فإذا استقبل المسلمون القرن الخامس عشر وفهم عدد منهم لوظيفة الحكم لا يتجاوز هذا النطاق العقيم .. فكيف تسير الأمة . وأين تتجه؟؟!

إن الفقه الدستوري في أمتنا يجب أن تتحسر عنه ظلال الحجاج وعبيد الله بن زياد .. وملوك بنى العباس .. وسلاميين آل عثمان ..

ويجب أن يمنع عن الخوض فيه شيوخ يقولون : إن الرسول صلى الله عليه وسلم افتات على الصحابة في عمرة الحديبية .. فمن حق غيره أن يفتات على الناس ويتجاوز آرائهم .



إن ذلك الضلال في تصوير الإسلام يفقد الإسلام حق الحياة .

والمعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم احترم الشورى ، ونزل على حكمها فيما لا وحي فيه ، وأن قصة الحديبية تصرف فيها الرسول صلى الله عليه وسلم على النحو المروى لما حبس ناقته حابس الفيل .. وأحس أن الله تعالى يلزمه بسلوك يجنب الحرم ويلات حرب سيئة .

فكيف يجيء من يعطى الرؤساء حق الحرب والسلام .. بعيداً عن الشورى .. لأن الرسول صلى الله عليه وسلم فعل ذلك يوماً ما في مكة التي يعلل القرآن منع الحرب فيها بقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطْنَ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوْكُمْ عَنِ المسجد الحرام والهدي معاً كفوفاً أن يبلغ محله ولو لا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموه أن تطهورهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء ولو تريلوا لعذبنا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٢٥) [الفتح : ٢٤، ٢٥] .

وظاهر أن الرسول صلى الله عليه وسلم اتجه مع توجيه السماء له .

وظاهر كذلك أن الشورى تكون حيث لا نص يوجهه . وأن الأمة هي مصدر السلطة حيث لانص بداهة .

ويؤسفني أن الكلام عن تكوين الدولة عندنا تعرض له أقوام على حظ كبير من الطفولة العقلية . أو على حظ من الزلفي يكسبون به الدنيا ويفقدون به الإيمان .

وإصلاح أداة الحكم وأصله الأول يحتاج إلى فقهاء أتقياء أذكياء ..

\*\*\*

والأوضاع الاقتصادية في عالمنا الإسلامي تحتاج من أعصار طويلة إلى النظر الفاحض والقلب النقاد .

وكثيراً ما تساءلت : إلى متى يظل التنفيذ من الحرام شغل واعظ ناصح . أو وصية مربٌ مخلص بصورة تدعو إلى اليأس أو الزهد في الدنيا .. لتظل هذه الدنيا فقط في أيدي أعداء المسلمين ؟؟

ما أقل جدوى ذلك الكلام في مواجهة الغرائز المريضة والأمانى السيئة !!  
لو أننا جئنا إلى كل ميل مربع من الأرض الممهدة للزراعة ، أو المعدة للبناء ،  
وتساءلنا : أمن الحلال تم تملكه أم من الحرام؟ لكان الجواب مفزعاً .

إن تاريخ التملك أو واقعه المعاصر يشهد بأن كفة الشر أرجح ، وأن المسلمين من أفقر أهل الأرض إلى قوانين صارمة تحرس قيمهم الدينية .. ونصولهم السماوية .

وما يقال في ملكية الأرض يطرد في سائر الأموال .. !!

ثم لماذا تبقى محاربة البطالة .. والبأساء والضراء خاضعة لتطوع أفراد بآداء الزكاة  
وبذل المعونة؟ لقد كان من أول أعمال الدولة الإسلامية - بعد حراسة الإيمان - أخذ  
الزكاة .. وهذا ما عزم عليه الصديق .. وتابعه فيه بقية الصحابة .

ومعنى الأخذ من الأغنياء أن الدولة هي التي تتولى الإنفاق في المصادر المقررة ..  
وأنها مسؤولة عن رعيتها أمم الله ، وأمام جماعة المسلمين .

وسؤال آخر له خطره ، وتجاربنا - نحن المسلمين - مع الزمن توحى بتوجيهه إلى كل ذي لب .. هل راقبنا سير المال في المجتمع وطرق تداوله بين شتى الطبقات ، ومساوى تكديسه في ناحية وإقفار ناحية أخرى منه ، أو نواح كثيرة ؟

وهل أدركنا آثار الترف المادى في انتهاء الوجود الإسلامي بالأندلس مثلاً ، وعملنا على تكرار المأساة ..

إن المال قوام الحياة وسياج المروءة .. وعندما يكون دولة بين جماعة من الناس ..  
فإن نتائج ذلك مدمرة .. إذ الجوع كافر ، وحقد المحرومين قاتل .

وهل انتشرت الشيوعية إلا مع هذه الخلخلة التي أحدثها العصيان لأوامر الله ،  
واعتداء حدوده ؟! فحتى متى يسترسل المسلمون مع أخطاء قديمة ؟!

لقد رأيت في أوروبا وأمريكا دولاً شتى تشرع قوانين دقيقة لضبط سياسة المال  
والحكم .. وذلك لأنها تعرضت لنزوات الجور والأثرة والطغيان ، وكما قال الشاعر :

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدُ دَاعِفَةً فَلَعَلَّهُ لَا يَظْلِمُ !!

فإذا وجدنا مجتمعات بشرية حصنت نفسها من هذه المأسى .. فلماذا لا نقتدي بها  
أو نقتبس منها ؟

قال لي البعض : هذا ما نخافه منك .. إنك تستورد الإصلاح من منابع بعيدة عن  
ديننا وتراثنا .. ونحن أغنياء عن مفترحاتك تلك .. !

قلت : تمنيت لو كانت غيرتك هذه في موضعها ! إنني معتز بدينى ولله الحمد .. ولكن  
ليس من الاعتزاز بالدين أن أرفض الجهاد بالصواريخ والأقمار الصناعية لأنها بدعة ..

إن التفتح العقلى ضرورة ملحة لكل من يتحدث في الفقه الإسلامي .

إننا في صمت نقلنا تسجيل كل مولود في دفاتر خاصة ، واستعينا بذلك على  
تحصينه من الأمراض ، وإلحاقه براحل التعليم ، واقتياضه للجيش كى يتم تدريبيه  
وإعداده للقتال .. وذاك إجراء نقلناه عن دول أخرى دون حرج .. فماذا يمنع الفقيه  
المسلم من قبول كل وسيلة أصيلة أو مستوردة لتحقيق الغايات التي قررها دينه ؟

إن النقل والاقتباس في شئون الدنيا ، وفي المصالح المرسلة ، وفي الوسائل الحسنة  
ليس مباحاً فقط ، بل قد يرتفع الآن إلى مستوى الواجب .

ثم إن الدين في باب المعاملات مصلح لا منشئ كما يقول ابن القيم ، إنه لم يخترع  
البيع أو الزواج . وإنما جاء إلى هذه العقود فضيبلها بتعاليمه !

فالبيع مثلاً بإيجاب وقبول ولا يجوز فيه الغش ، أو الربا ، أو الاحتكار . . إلخ .

والزواج مثلاً بإيجاب ولا يجوز فيه الاتصال بالمحارم ، ولا الافتياض على الولي ، ولا  
ترك الإشمار . . إلخ .

وفي شتى المعاملات إذا تحققت المصلحة فتم شرع الله! فما الذي يمنعنا نحن -  
الذين جمدنا فقهنا ، وأغلقنا باب الاجتهاد ألف عام - أن ننظر في الوسائل التي  
اتخذها غيرنا لمنع الفساد السياسي أو منع الاعوجاج الاقتصادي . . ونقتبس منها ما لم  
يصادم نصاً . . ولا يندر عن قاعدة؟

الحق أن التوقف في هذا المجال ليس إلا امتداداً للكسل العقلى الذى سيطر على  
مسيرة الإسلام التاريخية أبداً ليس بالقصير . . !!

\*\*\*

**ظلم المرأة باسم الإسلام؟!**

وهناك تقاليد اجتماعية لابد من إعادة النظر فيها لتنسقها مع ديننا وأحكامه  
الصحيحة . . وهى تقاليد تتصل بوضع المرأة ، وتكوين الأسرة .

إننى أحد الذين حاربوا تقاليد الغرب الجنسية ، وجاهليته الذميمة فى إشباع الغرائز  
من الحرام . . وقد وقفت فى وجه الذين يحاولون نقل هذه التقاليد إلى بلادنا وقفه  
جرت على المتابع . . وإنى لراضٍ كل الرضا عما أصابنى فى هذا الميدان . . لأنه فى  
سبيل الله .

إلا أنه حدث ما جعلنى أطيل الفكرة فى العلاقة بين الجنسين . ومكانة المرأة فى

بنائنا الاجتماعي ، لقد رأيت البعض يؤكد أن المرأة قعيدة بيتها .. لا تخرج منه أبداً  
إلا إلى الزواج أو إلى القبر .. !!

قلت : أهذا هو البديل الإسلامي عن حالة المرأة في الغرب ..  
لا .. الإسلام غير ذلك .. إن قرون التخلف التي مرت بنا انتهت في القرن الماضي  
بوضع للمرأة المسلمة لا يقول به فقيه مسلم !

لقد رأيت المرأة في بلادنا لا تدخل مسجداً أبداً .. بل في قرانا .. وكثير من المدن  
كانت المرأة لا تصلى وهي إلى جانب هذا الحرمان الروحي ، كان التعليم محرماً  
عليها .. فلا تدخل مدرسة أبداً ..

وقلما يؤخذ لها رأى في الزواج ، ويغلب أن يحتاج ميراثها .  
وإذا انحرف الشاب تسوهل معه .. أما إذا انحرفت المرأة فجزاؤها القتل ! ..

هل هذه المعالم المنكورة لحياة المرأة تنسب إلى الإسلام ؟ الله يعلم أن الإسلام بريء  
من هذه التقاليد ، كما هو بريء من المفاسد الجنسية في أوروبا وأمريكا ... !

ومع ذلك فإن منتبين إلى الإسلام وعلومه يرتكبون هذه الأحوال ، أو لا يتحمسون  
لتغييرها .. وأذكر أنني كنت ألقى محاضرة في اليوم العالمي للمرأة ، فلما قلت : إن وجه  
المرأة وصوتها ليسا بعورة .. حدثت ضدي مظاهرة صاحبة .. وسمعت طالباً يقول  
لزميله : كنا نحسن الظن بهذا الرجل فإذا هو شر من قاسم أمين !

ولست - ولله المنة - مفرطاً في ديني ، ولكنني مشفق على حاضره ومستقبله من  
الجهال والقاصرين .. لاسيما إذا واتتهم فرص فتححدثوا عنه وتكلموا باسمه .

وأسوق للقراء قصة وقعت في مؤتمر مسيحي إسلامي انعقد في أستراليا في عام

١٣٩٩هـ .

روى هذه القصة الدكتور حسن باجودة رئيس قسم الدراسات العليا العربية - كلية الشريعة قال : نظرت فوجدت المرأة في سمت عفريت داخل قاعة المؤتمر .. كانت مغطاة من أعلىها إلى أدناها ، مستخفية الوجه واليدين تطل على الحضور من وراء ثقبين في نقاب الوجه عليهما غطاء من زجاج أو باغة .. قلت : ما هذا ؟ قالوا : سيدة نصرانية جاءت تتحجج على ظلم الإسلام للمرأة .. فارتدىت هذا الزي الشرعى (!) عند المسلمين لترى النساء في أستراليا ما يعده الإسلام لهن إذا انتشر في هذه القارة الجديدة .. إن الحجاب الإسلامي يحفظ للمرأة شرفها ، ويرد عنها عيون الذئاب .. وليس كما يتصور القاصرون أنهن في سمت عفريت .. لماذا تحترم الراهبات ولا تحترم الحجبات وزيهما واحد ؟!

وقال لي أحد المبعوثين في لندن : إن رجلاً إنجليزياً أبدى إعجابه بالإسلام ثم قال : لكنني أذهب مع امرأتي إلى الكنيسة يوم الأحد .. فلما ذهب امرأته إذا كنتم تمنعونها من المسجد فلا تدخله طوال الأسبوع !!

قلت : ما حدث في أستراليا وفي إنجلترا حجة على المسلمين لا على الإسلام .. فليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أن وجه المرأة عورة يجب أن تستر .. ولا في كتاب الله تعالى أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أنها تمنع من دخول المساجد .. إن ناساً غلبهم الهوى الجنسي هم الذين شرعوا هذه التقاليد بعد ما تعسروا في شرح الآي بتفاصيل مرفوضة ، تفاصير لم يقل بها واحد من الأئمة الأربعة الذين انتشر فقههم في طول البلاد وعرضها ..

وقد دهشت لأن عالماً من شنقيط - وهو قطر مالكى المذهب - وقف في المسجد النبوى يقول أثناء إلقاء درس له : إن مالك بن أنس يقول : إن وجه المرأة ليس بعورة .. وأنا أخالف مالك بن أنس !!

قلت : ليس مالك وحده الذى يقول ذلك .. بل سائر الأئمة الأربعة إلا رواية واهية  
عن أحمد بن حنبل تخالف المقرر من مذهبه كما حكى ذلك ابن قدامة الحنبلى .  
والشيخ الشنقيطي - غفر الله له - حين يخالف أو يوافق ما يقدم ولا يؤخر ،  
وذكرت قول الشاعر :

يَقُولُونَ هَذَا عِنْدَنَا غَيْرُ جَائِزٍ ! وَمَنْ أَنْتُمْ حَتَّى يَكُونَ لَكُمْ عِنْدُهُ ؟

إن التربية الراسدة الناضجة هي الضمان الأول لكل نهضة ، والبيت هو المدرسة  
الأولى لتلك التربية .. وعندما تكون المرأة صفر العقل والقلب ، لا ثقافة في مدرسة ..  
ولا عبادة في مسجد .. فمن أين تتحقق التربية المنشودة؟!  
إنه لا مجتمع يصلح عندما تكون المرأة حيواناً يحسن تقديم الأكل والمتعة ..  
وحسب !

أسباب انهيار المجتمع :

إن الانهيار الذي عرض لأمتنا في العصور الأخيرة يرجع إلى أسباب علمية  
واقتصادية وسياسية كثيرة .. بيد أن فقدان التربية السديدة ، والأخلاق الصلبة يرجع  
إلى العوج الهائل في وسائل التربية وأول ذلك المرأة المخرفة الغافلة ، والبيت الساذج  
المحدود ..

لقد كانت النساء في العصر الأول تصل إلى التراويع في مساجد خاصة بهن حتى  
جاء أخيراً من يمنعهن أداء الفرائض في بيوت الله .. وكن يباعين الإمام على نصرة  
الإسلام ، ومكارم الأخلاق .. حتى جاء من يقوم بتجهيلها عمداً في قضايا الإسلام  
الكبير ، ومكافحة أعدائه المتربيين به ..

وقال لى رجل - من يرون سجن المرأة - نحن نعلمهن كل شيء .. ولا يخرجن من

بيوتهن ! فقلت له : إننا نعرق في محاولات مضنية ، لرفع مستواكم الفكري .. ولا  
نکاد ننجح ! فكيف نأمنكم على وظائف التربية والتعليم ؟

ثم هذا الذى تقوله .. أما كان محمد - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه يعرفونه  
عندما فتحوا المسجد للمرأة ، وأذنوا البعضهن بالمسير مع الجيش ؟ !

إن الإسلام لا يؤخذ من أصحاب العقد النفسية .. سواء كانت غيرتهن عن ضعف  
جنسى أو شبق جنسى .

إن الإسلام يؤخذ من كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -  
والمجتمع الذى يصنعه الكتاب والسنة يجعل المرأة تلد ذريات مشرفة ، باهرة الأخلاق ..  
لا دابة تلد حيوانات ..

\*\*\*

فى هذه السنة قرأت أسماء من نالوا جائزة نobel العالمية ، فإذا بين العمالقة المختارين  
اسم راهبة فى الهند تدعى «ترىستا» !

وتساءلت : ترى لماذا منحت هذه الجائزة ؟

وكان الإجابة : إنها نجحت نجاحاً تاماً في أداء رسالتها التبشيرية !

قالت صحيفة «الرائد» التى تصدر فى الهند : إنها من مركز عملها فى «كلكتا» منذ  
سنة ١٩٤٧م كانت تقوم بخدمات عظيمة فى إغاثة المنكوبين ورعاية المرضى .. وتقدر  
قيمة الجائزة التى نالتها بـ مليون ونصف روبية .. وكان «السيناتور كيندى» قد رشح اسم  
الراهبة عندما زار الهند فى أثناء أزمة «بنجلاديش» واطلع على الجهد الذى بذلتتها  
لإسكان لاجئى باكستان الشرقية ، وقد شاهد بنفسه نشاط الراهبة التى تعمل لنشر  
الدين المسيحى بين شتى الطبقات وبين البؤساء والمساكين والمضطهددين .. وذلك عن

طريق فتح شبكات ، كذا المدارس والمستشفيات والملاجئ .. ودور رعاية اللقطاء ،  
والأطفال المهجورين ..

ويعرف مدى نشاط هذه الراهبة ، واتساع الرقعة التي تعمل فيها إذا ذكرنا أن ٢٥٠  
راهبة يعملن تحت إشرافها في دائرة «كلكتا» وحدها .. ويبلغ عدد الراهبات التابعات  
لمركزها ١٨٠٠ راهبة في عشرين بلدًا منها بلاد عربية!! وتدير منظمتها الخيرية ٨٧ داراً  
للأيتام في الهند و٤٠ داراً في خارجها و٢١٣ مستشفى للعلاج بالمجان و٥٤ مستشفى  
للمجنومين ، و٦٠ مدرسة للتعليم ، ومستشفى من مائة سرير للمرضى اليائسين الذين  
ينتظرون الموت !!

قالت جريدة الرائد : واعترافاً بخدماتها منحتها الخطوط الجوية الهندية ، وكذلك  
السكك الحديدية رخصة للسفر بالمجان ..

إنني أسوق هذا الخبر لنفر من المتكلمين باسم الإسلام يرون المرأة في الجامع  
أو الجامعه قذى في أعينهم ، ويضعون العوائق من عند أنفسهم - لا من عند الله - كيلا  
يكون للنساء وجود في ميادين الأمر والنهي ، والنصح للعامة والخاصة ..

وهم مهرة في لَئِيْ أعناق الآيات ، وقلب الأحاديث النبوية رأساً على عقب ، وتحريف  
الكلم عن مواضعه حتى يأخذ الناس دينهم من عقول بِها مَسّ .

وأعرف الآن نساء يقمن بعمل رحب في خدمة بيوت الطالبات ، وإنشاء المؤسسات  
الصحية والثقافية .. في مقدمتهن السيدة الجليلة «زهيرة عابدين» الأستاذة بكلية  
الطب جامعة القاهرة .. وقد استعانت بي في فتوى متواضعة لمنع متخرجة في كلية  
الصيدلة من القعود في البيت والارتزاق من آلة خياطة .. لأن أحد المشايخ قال لها :  
«إن المرأة لا يجوز أن ترى أحداً أو يراها أحد» .

قلت لها : هذه فتوى مخبول لا يعرف الإسلام .. بل هو وأمثاله قرة عين لأعداء

الإسلام .. فلا يحرم الإسلام على المرأة أن تبيع وتشترى ، وأن تتعامل مع الناس ما دامت مستترة في زيها الإسلامي متأدبة بآداب الإسلام ، غير متبرجة بزينة .. تحفظ نفسها وعرضها من الذئاب .

\*\*\*

### تنقية الثقافة الإسلامية:

وضرورة الانتفاع من عبر الزمان ، ومر القرون ، تقوتنا إلى حديث عن الثقافة الإسلامية السائدة ، وجرائم الاسترخاء والفناء التي تسرب فيها .

إن هذه الثقافة اختلطت بها عناصر سامة من جهالات الدهماء ، وأهواء الخاصة ، وخرافات أهل الكتاب ، وزيف الجاهليات القديمة ، وإيحاءات الحكام الطاغين ..

وكم أذكر حاجة المسلمين بين الحين والحين إلى علماء نقدة من الصنف العبرى الذى قال فيه الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - : «يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين» .

وكما اختلطت بالثقافة الدينية هذه المواد الضارة ، فإنها نقصت أجزاء مهمة .. لتكون صورة صحيحة للقيم والغايات الإسلامية .

وهذا النقصان هو السبب فى اضمحلال العلم الدينى داخل حدود العالم الإسلامي وخارجه .. ولا أريد الآن ضرب أمثلة كثيرة من علوم الكلام والتفسير والحديث والفقه .. فإن الأمر فى هذه الميادين يحتاج إلى مؤتمرات تتعقد باستمرار .. لمصادرة الزوائد المؤذية واستكمال العناصر المفقودة .

وإنما أضرب المثل من علمين شعرت - وأنا أحدث الجماهير - بمدى عجزنا فيهما .. الأول علم التاريخ والثانى علم الدعوة .

إن التاريخ يسجل الواقع ويستخلص منها العبر ..

وعلم التاريخ الإسلامي في كلا المجالين مقصور .

ونظرة عجلى إلى الأربعة عشر قرنا التي غابت ، وإلى الأقطار الفي حاء التي اندفع فيها الإسلام خلال هذه المدة الطويلة ، ونظرة أخرى إلى الهزائم والانتصارات ، وظروف التقدم والتأخر التي عرضت لهذه الأمة .. تبرز بقوة أن علم التاريخ لم يتناول إلا مساحة محدودة من الزمان والمكان وأن حساب الأرباح والخسائر مضطرب حيناً ومعدوم حيناً آخر .

وأن محاكمة الأشخاص والأشياء إلى المثل الإسلامية غامضة أو ضائعة .. بل إن الوحدة الجامعة للأمة كلها على اختلاف الأعصار والأمصار تائهة في هذا التاريخ الطويل ..

كأن الأمر قصة مؤسسة افتتحت لها فروعًا في عواصم عديدة ثم طال الأمد ، ونسى الأصل ما تفرع عنه هنا وهناك .. !!

ولولا لقاء الحجيج في مكة ما عرف مسلمو (دакان) (لا جوس) على المحيط الأطلسي أن لهم إخوة في (إندونيسيا) والفلبين على المحيط الهادئ .. !!  
أين التاريخ الذي يعرض هذا الكيان الطويل العريض في نسق واحد ، صفحات متقاربة ؟

عندما كان تاريخ الإسلام سنتين عدداً كان الصحابة يرون لأولادهم مغازى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلاقة هذه الأمة بغيرها .

إعادة كتابة التاريخ:

فلما طال التاريخ وجد نفر من الرجال قد يرون الجد والهزل ، وقد يعقبون بغير قليلة أو لا يعقبون .

ثم عجز التاريخ عن ملاحقة التحرك الإسلامي ، ثم عجز أقبح العجز عن لفت الأنظار إلى غارات العدو على هذه الأمة .

(إذا الفلبين) مثلاً تضيع منها في صمت .. وهذا العنوان جلبته الصليبية الغازية الشرق - العالم الإسلامي - ووضعته على مجموعة الجزر القريبة من إندونيسيا .

وكانت هذه الجزر إسلامية مائة في المائة! ثم أخذ الغزو النصراني يلح عليها ، ويتغلغل فيها قرناً بعد قرن حتى وضع عليها اسم فيليب الثاني «ملك إسبانيا .. فأصبحت الفلبين» .

ومضى التنصير في طريقه الدامي .. ومنذ قرن كان المسلمون نصف السكان .. وهم الآن خمس السكان .. والمراد الإجهاز عليهم واستئصال بقائهم .

ماذا كان يصنع الترك والعرب خلال هذه الحقب المشئومة؟ أين كتاب التاريخ والملقون على أحداثه الكبرى؟

لقد سكتوا كما سكت إخوان لهم من قبل بعد كارثة الأندلس .. كأن ضياع الأندلس سقوط بضعة دريهمات من جيب ثرى متلاط !!

عندما كنا طلاباً درسنا للشيخ الخضرى محاضرات عن التاريخ العباسى .. وضعها رجل ذكى بصير .. ساق الأحداث بين يدى شرح ضاف للصعود والهبوط ، والنصر والهزيمة قلت : ما أحوج أمتنا إلى مثل هذا المؤرخ يلقى الضوء على تاريخها كله طوال أربعة عشر قرناً ، متناولاً بقلمه الكشاف أبعاد هذا التاريخ على خطوط الطول والعرض ، وأجناس الدول التى صنعته أو شاركت فيه .

إن ذلك لزام علينا حتى نواجه الردة المجنونة التى وقفت بتاريخ الإسلام العام ، وجعلت العرب يضعون لهم تاريخاً ، والترك تاريخاً ، والعجم تاريخاً ، والهنود تاريخاً .. إلخ .

إن التاريخ لرسالة واضحة الهدف ، انتظمت أحناشًا شتى ، وعاشت أعصارًا متطاولة .. رسالة مفروض أن تبقى إلى آخر الدهر .. إن هذا التاريخ يجب أن يكتب بأسلوب أجمع . وأفق أوسع مما هو الآن !!

ذاك عن علم التاريخ .. أما الدعوة إلى الإسلام فشأنها عجيب ..

### أين دور أجهزة الإعلام والدعوة؟

في عصرنا الحاضر توجد أنواع من الإعلام تخدم بذكاء ودهاء ألواناً شتى من الإلحاد والانحراف .

والأجهزة الخادمة للعلمانية والصهيونية والصليبية بلغت من النجاح حدًا كاد يقلب الحق باطلًا ، و يجعل النهار ليلاً ..

أما الإسلام .. فإن الجهود الفردية التي بلغت رسالته من قديم لاتزال تواصل عملها بكلال وقصور .. وأكاد أؤقن بأنه لو لا عناء علياً ما بقى للإسلام اسم ولا كتاب .. فإن أجهزة الدعاية الإسلامية وهم كبير .. حتى بعد قيام جامعات كبرى على الاهتمام بعلوم الدعوة وطرائق نشرها ..

المعروف أن الدعوة إلى الله تعالى عبادة يقوم بها المسلم القادر .. مرضاه لربه .. وابتغاء ما عنده .. وقد نشط أفراد كثيرون لتبلیغ الإسلام في أرجاء العالم ، وشرح صدور به كانت مغلقة .

والجهد الفردي مهما قارنه من إخلاص قليل الثمر .. إنه يشبه نشاط التجار الصغار أمام الشركات الكبرى .

أين عمل الحكومات الإسلامية؟ .. وأين ما وضعته من خطط لنشر رسالة عالمية؟!

إن الفساد السياسي عندنا كان السرطان الذي أودى بحضارتنا ورسالتنا خلال قرون مضت .. إن حكامنا كانوا القشرة العفنة في كياننا من زمن بعيد .. !!

ولكى نعرف الفروق بين نشاط ونشاط .. نلفت النظر إلى أن الفاتيكان استطاع بأجهزته المنظمة أن يجعل عشرين دولة فى أمريكا الجنوبية تتبع مذهبًا واحدًا وتنطق لغة واحدة .. أما نحن ففى الشام وحده جمدنا نحلاً داخل الكيان الإسلامى ، أو وفرنا لها النماء المستغرب .. فبقيت النصيرية واليزيدية والدرزية إلى جانب اليهودية والنصرانية .. بقيت داخل قطر إسلامى واحد ألف عام !!

أين أجهزة الدعوة .. بل أين أجهزة التعليم العادى !!??

وكان فى الهند عشرات الملايين من المبودين .. هل فكرت الحكومات الإسلامية فى اجتذاب هؤلاء إلى الإسلام ، وحركت العلماء لدرس أحوالهم وكسب جانبهم؟ إن ما كان على الدولة أن تقوم به نهض به أفراد احتساباً .. ولا ننكر نجاحهم فى توسيع دائرة الإسلام شرقاً وغرباً .

لكن الأفراد قد ينجحون فى نشر الإسلام لسهولة تعاليمه ، ومواءمته للفطرة .. بيد أنهم يعجزون عن تعليم اللغة العربية ، وتسهيل قواعدها .

والعرب الآن سُبُع .. أو ثمن مسلمى العالم الإسلامى .

وقد نشأ عن توقف العربية ، وعجز اللهجات المحلية أن اهتبل أعداء الإسلام الفرصة فقاموا بعمليين مهمين عميقى الآثار .

الأول : نشر اللغات الأوروبية ، خصوصاً الإنجليزية والفرنسية ..

الثانى : كتابة اللغات القومية بالحروف اللاتينية .. ومعنى ذلك أن ما كتب باللغات المحلية والحروف العربية عن الإسلام خلال ألف عام أمسى لا قيمة له .

انقطعت صلة الأجيال الجديدة به .. وسهل الطريق أمام هؤلاء ليتصلوا بثقافات أخرى ، وديانات أخرى عن طريق اللغات العالمية التى تساندتها الدول الاستعمارية !!

هذا جانب من عجزنا عن تبليغ دعوتنا ..

أما علم الدعوة نفسه ، وتكوين الدعاة الأكفاء لما ينط بهم .. فالكلام فيه مر المذاق .. وربما كان في حديثنا المستأنف ما يشير إلى ما نقصد .

\*\*\*

نظرت بعيداً عن دار الإسلام ، وراقبت زحام الفلسفات والملل التي تتنافس على امتلاك زمام العالم . فوجدت الإعلاميين أو الدعاة يختارون من أوسع الناس فكراً ، وأرقهم خلقاً ، وأكثرهم حيلة في ملاقة الخصوم ، وتلتف الشبهات العارضة .

حتى البوذية - وهي دين وثنى - رزقت رجالاً على خط خطير من الإيمان والحركة .. لقد طالعت صور الرهبان البوذيين الذين يحرقون أنفسهم في (فيتنام) ليلفتوا الأنظار إلى ما يصيبهم من اضطهاد .. وعرتني رجفة لحلاة الرجال والنساء الذين يفعلون ذلك !

فلما رجعت بصرى إلى ميدان الدعوة في أرض الإسلام غاص قلبي من الكآبة !

كأنما يختار الدعاة وفق مواصفات تعكر صفو الإسلام . وتطيع بحاضرها ومستقبلها .. وما أنكر أن هناك رجالاً في معادنهم نفاسة ، وفي مسالكهم عقل ونبيل .. بيد أن ندرتهم لا تخل أزمة الدعاة التي تشتد يوماً بعد يوم .

والغريب أن الجهد مبذولة لمطاردة الدعاة الصادقين ، من العلماء الأصلاء ، والفقهاء الحكماء .. للقضاء عليهم ، وترك المجال للبوم والغربان من الأميين والجهلة والسطحين يتصدون للدعوة ويتحدثون باسم الإسلام .

وراء ذلك مخطط استعماري مدروس بدءاء ، تنفذه الحكومات المدنية بدقه ..

حتى لا يبقى للإسلام لسان صدق ، وحتى تبقى العقول المختلة هي التي تتحكم في الحديث  
عن هذا الدين المظلوم !

ويوجد الآن شباب وشيوخ يعملون في ميدان الدعوة ، أبرز ما يمتازون به الجهل ..  
بالنسبة التي تكون معلم الدين ، وتضبط شعب الإيمان !

تصور تلميذاً يقال له : ارسم خريطة لجزيرة العرب ، ووضح مكان الحرمين بها .. فإذا  
هو يرسم الخريطة وليس بها إلا الربع الخالي .. فإذا سأله وأين مكان الحرمين ؟ وضع  
نقاطاً بين تبوك والأردن ! أو تلميذاً يقال له : ارسم خريطة لنهر النيل .. فإذا هو يجعل  
فرعى الدلتا يبدئان من الخرطوم لا من القاهرة .

إن كلا التلميذين ساقط لا محالة في هذا الاختبار .. فما الرأي إذا اختير كلاهما  
مدرسًا للجغرافيا ؟ !

أعداد غفيرة من المحدثين في الدعوة يشبهون هذا المدرس الجهول .

قضايا صغيرة تتضخم في رعوسيهم ، وقضايا تستخفى ، وحماس في موضع البرود ،  
وببرود في موضع الحماس ، وأحاديث ضعيفة أو منكرة تصحح ، وصحيحة تضعف  
وتزد .

كنا ضيوفاً عند أحد الناس .. فسكب في يدي قطرات من ماء الكولونيا .. فإذا  
أحد الدعاة يصرخ : حرام ! نجس !

فقلت له : دعني ورأيي ، إن مالكا - رضي الله تعالى عنه - يرى ريق الكلب وعرقه  
ظاهرين .. ويراهما غيره نجسين ..

فلنتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضاً بعضاً فيما اختلفنا فيه .

فقال : اليد التي بها (كولونيا) نجسة ، وتحرم مصافحتها !

وعلمت أنى أحدث من لا يستحق المحادثة .. علمت أنى أمم امرئ مسحور !

\*\*\*

ورأيت طالباً في القاهرة يريد أن يدخل كلية الطب بجلباب وقلنسوة .. وسألته : لم هذا الشذوذ؟ قال : لا أتشبه بالكافار في ارتداء البدلة الفرنجية .. قلت : التشبه الممنوع يكمن في انحلال الشخصية ، وإعلان التبعية النفسية والفكيرية لغيرنا ، ولقد لبس الرسول - صلى الله عليه وسلم - جبة رومية كانت ضيقه الأكمام .. فلما أراد الوضوء أخرج ذراعيه أسفل .. ولكن الطالب الأحمق أبى وترك الدراسة الجامعية .

\*\*\*

فهم خاطئ :

وكنا يوماً في حفل جامع و كنت ألقى محاضرات «ذات بال» في موضوع خطير .. ورأى أحد الصحافيين التقاط صورة للجمع الحاشد .. ولكن الداعية نهض يمنع التصوير .. فلما أصر الصحافي على المضي في عمله اتجه الداعي إلى الآلة ليكسرها . وجاءني الوعاظ الغيور يسألني : لماذا لم تمنع التصوير؟ قلت : لأنى أراه مباحاً ! قال : ألم يقل الرسول - صلى الله عليه وسلم - : «إن أشد الناس عذاباً المصوروون؟» قلت : إنه يعني صانعى التماضيل للعبادة .. ولا يتصور أن يكون هذا الصحافي أشد عذاباً من الزناة والقتلة والمرابين والظلمة ..

قال : الحديث عام فلماذا تخصصه؟ قلت : خصصه الواقع الذى لا يمكن تجاهله .. فالوثنيون كانوا يعبدون أصناماً مجسمة ولم يعبدوا صوراً شمسية .. وعندما تكون الصورة الشمسية لصنم أو لصليب أو لمعنى ديني مرفوض فسنحرمها .

أما التقاط الصوت في شريط مسجل ، أو التقاط الظل واللامع على ورقة لأغراض

علمية أو اجتماعية فلا علاقة له بالوثنية ، ولا يحكم عليه بتحريم .. بل هو كما نبه مسلم في صحيحه ليس (إلا رقمًا في ثوب) .

قال : هذا الكلام مردود ، ومحاضرتك عن الوحدة الإسلامية ، وعن التناحر بين المسلمين لا تقبل .. ما دامت مقرونة بإقرار التصوير !

وشعرت بالضيق .. ثم كظمت غيظي ورفضت مواصلة النقاش . وأحياناً آخرون السنة النبوية بالأكل على الأرض ، واستخدام الأيدي ، رافضين الأكل على الموائد ، واستعمال الشوك والملاعق .

قلت : من قال : إن الأكل على المائدة ، أو استخدام الملاعق مخالف للسنة ؟ إن فهم هؤلاء الناس للدين غريب ، وإثارة هذه القضايا دون غيرها من أساسيات الإسلام مرض عقلي .. إنه ضرب من الخبال .

إن المؤامرات تستحكم يوماً بعد يوم لاغتيال الإسلام أو الإجهاز عليه جهرة .. فكيف يشتعل قوم بهذه السنن فقط ثم يتسللون في الواجبات وعظائم الأمور !! ورأيت يوماً رجلاً حليق الشارب والرأس بالموسي ، وله لحية مشوشة وغير مهذبة فساورني خاطر أنه قادم من عمرة . واحترمت في نفسي هذا الظاهر الموقوت .

ولكنني أعدت النظر في هيئته فوجده مكحلاً العينين ، وثوبه إلى نصف الساق أو أعلى . فقلت : هذا رجل من المنتسبين إلى الدين والحديث فيه ، وهو بهذا السمت يرى أنه جمع المجد من أطرافه كلها .

ورمته ثم تشاغلت عنه .. ولكنه جاءني يسألني بأدب : أنت فلان؟ قلت : نعم ! قال : قرأت رسالة وزعت علينا تصفك بأنك تهاجم السنة ! وأنك مع الشيخ «أبي رية» في تكذيب الأحاديث !!

قلت في سكون : وقعت هذه الرسالة في يدي ... !  
قال : ما رأيك في هذه التهم؟ قلت : ما رأيك أنت؟ هل قرأت لي كتاباً؟ قال : نعم ،  
قرأت كتابك «خلق المسلم» : قلت : في هذا الكتاب وحده أكثر من ألف حديث عن  
النبي - صلى الله عليه وسلم - وفي فقه السيرة وكتابين آخرين نحو ألفي حديث .  
إذا أثبتت رجل في عشر مؤلفاته نحو ثلاثة آلاف حديث فكيف يتهم بتكذيب  
السنة !!؟

قال : إنك ردت حديثاً صحيحاً رواه البخاري ومسلم .. وهو أن الرسول - صلى الله  
عليه وسلم - أغار على بنى المصطلق وهم غارون! قلت على عجل : لقد ردت الفهم  
القدر الذي استقر في ذهن بعض الناس لما قرأ هذا الحديث ...  
لقد فهم أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يأخذ الناس على غرة ، ويغير عليهم  
دون أن يدعوهم إلى الإسلام ، كأنه قاطع طريق يطلب المغانم .. هذا الغباء في فهم  
السنة هو الذي كذبته . ولم أكذب الحديث نفسه!  
وعلماء المسلمين قاطبة قرروا أنه لابد من الدعوة قبل القتال .

وكاتب الرسالة التي هاجمتني يرى أن الحرب الإسلامية لا يسبقها عرض دعوة ،  
ولا تنوير ذهن .. يرى أن الدعوة كانت قدماً . ثم نسخت ، وأمسى القتال هجوماً  
مباغتاً ، أو أخذًا على غرة ..

فهل إذا زيفنا هذا التفكير العطن ، أسرع الجهال إلى اتهامنا بتكذيب السنة !!؟  
إننا نحمي السنة من أفهام الأرذل .

قال : وحديث آخر من الصالحة ردته .. وهو حديث : (إنه ما من يوم يجيئ إلا  
والذي بعده شر منه) قلت : بل رده حديث آخر (أمتى كالغيث لا يدرى أوله خير أم آخره)  
و الحديث حذيفة الذي رواه مسلم وجاء فيه : (إن بعد الخير شرًا وبعد الشر خير) .

ومن جملة الأحاديث الواردة في القضية يفهم أن تاريخ الإسلام بين مد وجزر،  
وغربة وإيناس، ونصر وهزيمة . . .

أما القول بأن الإسلام يسير كل يوم إلى الهاوية، وأن مستقبله مشئوم . . فقول  
مكذوب .

قال : هذا ظاهر الحديث .

قلت : هذا ظاهر فهمكم أنتم لحديث لم تبلغ عقولكم غوره . . !  
بم سينزل عيسى بن مريم ؟ وحديث نزوله صحيح ؟ أليس نزوله لمقاتلة الصليبيين ،  
ونصرة التوحيد ، وذبح الخنزير ، ووضع الجزية . . ألستم تقرءون هذا ؟ فأين الهاوية التي  
ينتهي إليها الإسلام حتماً !!

هل السلفية التي تزعمونها هي اتهام رجل بتكذيب السنة ؟ لأنه أول حديثاً يشعر  
ظاهره بسوء مستقبل الإسلام .

أى تدين هذا الذى تزعمونه ، وأى دعوة هذه التي تنشرون ؟ الحق أن هناك أناساً  
يشتغلون بالدعوة الإسلامية . . وفي قلوبهم غل على العباد ، ورغبة في تكفيرهم  
أو إشاعة السوء عنهم . . غل لا يكون إلا في قلوب الجبابرة والسفاحين . . وإن زعموا  
بأنستهم أنهم أصحاب دين .

إن فقههم معدوم ، وتعلقهم إنما هو بالقصور والسطحيات .

إن الاكترات البالغ بالشكل يتم عادة على حساب الموضوع كما أن الاهتمام الشديد  
بالنوافل لا يكون على حساب الأركان . . وأذكر أنى دخلت المسجد النبوى عقب أذان  
المغرب وجلست في انتظار الصلاة التي قدرت أنها ستقام تواً . . فإذا شخص يقول لي

بكيريا : لماذا لم تصل النافلة ؟ فقلت له : هما ركعتان ملن شاء ! لا إلزام هنالك ! قال :  
أعني تحية المسجد .. قلت : لا إلزام كذلك ..

وما هي إلا لحظات حتى أقيمت الصلاة وتهيأنا للفريضة .. وقال لي مراقب  
للحوار : أيمكن أن يكون قبل المغرب أربع ركعات ؟ فقلت له : لا .. وهذا أمر يريد  
الاستطالة على غير علم ، ولو أنه صرف نشاطه في تعليم اللغة العربية لرجل أعمى  
لكان ذلك أرجى له عند الله من النوافل التي يريد توبينها على تركها .

إن هناك مشتغلين بالعلم الديني ، قاربوا مرحلة الشيخوخة ألفوا كتاباً في الفروع ،  
وأثاروا معارك طاحنة في هذه الميادين .. ومع ذلك فإن أحداً منهم لم يخط حرفاً ضد  
الصلبية أو الصهيونية ، أو الشيوعية أو العلمانية .

إن وطأتهم شديدة على الأخطاء بين أمتهم ، وببلادهم أشد تحاه الأعداء الذين  
يبغون استباحة بيضتهم .

بأى فكر يحيا أولئك ؟

تصور شخصاً ذهب إلى خياط ليصنع له جلباباً فهو يقول له : أريد الكلم مضاعف  
الأساور ، واصنع عروة في كل طرف تكون مكسوفة لظهور منها الأزرار .. لكن بلغنى  
أن الصيحة الأخيرة مضاعفة العرى وتغطيتها ، اصنع لي عروتين في كل كم وغطها  
بحيث تخفى من تحتها الأزرار !! وإذا كان لديك (كباسين) بدل الأزرار ربما كان ذلك  
أفضل ، وقد رأيت البعض يصنع ثلاث عراوى لوضع ثلاثة أزرار .. ماذا ترى ؟ أيمكن  
ذلك خيراً أم .. إلخ .

هل الدماغ المشغول بهذه القضايا يصلح لشيء طائل في الحياة .. أهذا رجل  
يتمسك في تفكيره أمر ذو بال ؟

## أسباب الداء:

إن أعداداً كبيرة من المتدينين تأهبون في هذه الموضوعات . . وقد استقلت الباكستان من ثلث قرن . . ولكن الخلاف بين الأحناف وأهل الحديث ، وبين التبليغيين ورجال الجماعة الإسلامية ، وبين فرق أخرى نسيت أسماءها . . هذا الخلاف جعل الهند الوثنية تطفر وتستقر وتفجر الذرة .

أما الدولة المسلمة فهي منتكتة الشمل داخل فنون من النزاع الطائش قسم ظهرها وهدد وجودها !!

إن هذا الدوخان في دوامة الرسوم والمظاهر ، أو في دائرة هيئات العبادة وأقدارها نشأ عنه أمران خطيران . . كلها يهوى بالأم من حلق ، ويذهب بريحها .

الأول ضعف الخلق . . فقد نرى الرجل دقيقاً في التزام المندوبات الخفيفة . . فإذا كان تاجراً احتكر السلع دون مبالاة ، وإذا كان موظفاً تبليدت مشاعره في قضاء مصالح الجمehور ، وإذا كان رئيساً وجدته سبيع الملكة ، قاسي القلب ، مكشوف الهوى .

وقد ترى العابد من هؤلاء يضع يديه على صدره وهو قائم للصلوة ثم يعيد وضعهما بعد الرفع من الركوع ، ويشير زوبعة على ضرورة ذلك . . فإذا كلفته بعمل ترقى به الأمة اختفى من الساحة !!

وكم تفتقر أمتنا داخل البيوت ، وأوساط الشوارع ، وفي الدكاكين والدواوين ، وفي الأسواق والمعاهد ، وفي كل مكان ، إلى الأخلاق الضابطة الصارمة كى تؤدى رسالتها الجليلة على نحو جدير بالاحترام . . ولكن الاكتتراث بالمراسم غض من هذه الأخلاق .

أما الأمر الثاني فهو العجز العجيب عن فقه الدنيا . . والاقتدار على تسخيرها لخدمة الدين . . إن الدين الحق تقوى - تعمر القلوب - من العبادات لا يستغرق تعلمها زماناً .



ثم مهارة في شؤون الحياة تحول مع صدق النية إلى وسائل لدعم الحق وسيادته .  
إن تعلم الصلاة - وهي الركن الأول في الإسلام - لا يستغرق دقائق معدودات ..  
ولكن التدرب على اقتياض دبابة أو طائرة أو غواصة يحتاج إلى زمان طويل .. فبأى فكر  
يطلع علينا القرن الخامس عشر وجمهورنا جاهم في فنون الجihad ، وبارع في الحديث  
حول تحية المسجد ، ووضع اليدين في الصلاة ؟

إن هناك علماء - هم في حقيقتهم عوام - لا شغل لهم إلا هذه التراثات والتقدرات ،  
وقد أضاعوا أمتهم ، وخلفوا أجيالاً من بعدهم لا هى في دنيا ولا هى في دين !!

**نحو وفشلنا:**

وقد تأذنت الأقدار بقيام إسرائيل على أرض فلسطين الإسلامية .. فهل مددنا  
أبصارنا لنعرف كيف يحيا القوم وكيف ينصرؤ اليهودية ؟!

لقد بنوا وجودهم على إقامة مجتمع صناعي متمرس بالعلوم المادية ، خبير بأسرار  
الكون .. يستغل الهواء والشعا ع لدعم إسرائيل وتبويئها الذروة .. !

المراوح تستخدم لاستخراج المياه الجوفية ، والشمس تستغل لتسخين المياه .. !!  
وجن سليمان ينظرون إلى العرب الذين ينشدون اللذة ، أو العرب المشغولين بقشور  
العبادة .. على أنهم قطعان تسرح في أقطارها إلى حين .. !

لماذا جهلنا أسرار الحياة .. وعمينا عن قوى الكون .. ولدينا كتاب لا نظير له في  
لفت الأبصار إلى هذه وتلك ؟!

بم شغلنا؟ وما هي البحوث والقضايا التي حبست أفكار العامة والخاصة ؟!  
إذا كان الآباء قد شغلاهم الترف العقلى .. فإن الأبناء قد شغلاهم السخاف العقلى .  
في رسالة عن التقدم العلمي داخل إسرائيل قرأت هذه العبارات عن الدولة التي  
تبني نفسها فوق أنقاضنا .

قال الكاتب : إن فشلها فى الحصول على طاقة كهربائية رخيصة من المصادر المائية قد جعل معظم الأبحاث العلمية التطبيقية تتجه نحو إيجاد بدائل للطاقة الكهربائية .. مثل الطاقة الهوائية والشمسية والذرية .

وقال : نجح الچيولوجيون فى إيجاد المياه اللازمه للمزارع القريبة من شاطئ المتوسط ، ويعمل الخبراء فى حفر عدد كبير من الآبار الارتوازية فى منطقى الجليل ويهدوا .. وقد تعاون المهندسون المائيون ومعهم الفيزيائيون فى دراسة حركة المياه الجوفية ، واستخدمو النظائر المشعة فى مثل هذه الدراسات .. حيث حقنوا مياه بعض الآبار ب محلول مشع ثم أخذوا عينات من مياه الآبار الأخرى القريبة من مركز الحقن ، وحللوها وعينوا كمية تركيز الإشعاع فيها .. وبذلك استطاعوا أن يحسبوا كمية المياه الجوفية واتجاهها وسرعتها ، وأن يعينوا عمقها وتركيبها .. كما أنهم استخدمو تطبيقات النظائر المشعة فى تعين واختبار التبخر الكلى والجزئى .. كما أن خبراء الرى قد استخدمو أحدث الطرق الفنية فى شق القنوات لتحويل مياه الأردن إلى صحراء النقب .

وقال : نجح الإسرائييليون سنة ١٩٦٤ فى استغلال بعض الأراضى الصحراوية وتشجيرها ، وأقاموا مزارع نموذجية فى أفدات Avdat وشيفا Shive ولا تزال الأبحاث مستمرة فى مختبرات معهد أبحاث المناطق الجافة (فى بئر السبع) من أجل تحلية المياه الصحراوية .

وقال : ويستخدم خبراء المائيات طريقة جديدة مشجعة تعرف باسم طريقة زاركين للتحلية (Zrakin desalination process) نسبة إلى اللاجئ الروسي ألكسندر زاركين ، الذى اكتشف هذه الطريقة .. وتقوم هذه الطريقة الجديدة على تجميد مياه البحر ، وفصل الأملاح أليا .. فعندما ينخفض الضغط الجوى الواقع على الماء فى وعاء محكم

الإغلاق .. يمكن عندئذ جعل درجة غليان المياه أدنى بكثير مما هي عليه في الحالة العادية .. وهكذا فإن مياه البحر توضع في غلاية مفرغة من الهواء في درجة حرارة أقل من درجة الصفر المئوي .. وعندما يتبخّر الماء فإن الحرارة الباقيّة فيه تنفذ منه فيتحول رأساً إلى جليد .. ولكن الملح لا يتجمد بل ينفصل عن الماء ألياً .. حيث يمكن جمع الجليد على حدة ، والملح الذي كان ذائباً في الماء يجمع على حدة أيضاً .. وأقيم في إيلات مصنع لفصل الملح عن الماء على هذا الأساس ينتج يومياً ٢٤٠٠٠ لتر من الماء العذب ، وقامت تعاونية فيربنكس ويتنى Fairbanks whitney ببناء مصنع آخر عام ١٩٦٢ ينتج يومياً مليون لتر من الماء العذب .. ويهدف المشروع إلى تأمين مياه عذبة رخيصة بحيث يكون سعر كل ١٠٠ لتر حوالي (٣) قروش لبنانية .. وهذا السعر أرخص من سعر الماء العذب في القدس مثلاً .

وعن جهود اليهود في توليد الطاقة الكهربائية :

قال : تزود إسرائيل بالطاقة الكهربائية بواسطة التعاونية الفلسطينية المحدودة للكهرباء التي تحمل اسم ب . روتنيبرغ P. Rutenberg الذي عمل مديرًا لهذه المؤسسة حتى وفاته عام ١٩٤٢ وتمون هذه التعاونية إسرائيل بالطاقة الكهربائية ما عدا مدينة القدس وضواحيها ، وتشير الإحصائيات إلى أن استهلاك الطاقة الكهربائية خلال الثلاثين سنة الأخيرة قد ارتفع من مليوني وات عام ١٩٢٨ إلى ٣٦٠ مليون وات عام ١٩٥٨ ، ويتراوح مجموع مبيعات الطاقة الكهربائية في الفترة نفسها من ٣ ملايين كيلووات ساعة إلى ١٨٠٠ مليون كيلو وات ساعة .

وعن الطاقة الهوائية : Wind Energy :

قال : قام المهندس ج . فرنكيل J. Erankial من مهندسي التكنيون بإجراء دراسة شاملة للرياح في إسرائيل .. واقتراح على الدولة البدء باستغلال الطاقة الهوائية في

الأمور الصناعية . . وما قاله في تقريره : (إن استغلال الطاقة الهوائية مهم جداً في تطوير الصناعة الإسرائيلي مادمنا لازال نستورد الوقود اللازم ؛ لتوليد الطاقة ، من الخارج) .

ووضع فرنكيل برنامجاً خاصاً لاستغلال الطاقة الهوائية ، وقام الخبراء بناء على هذا البرنامج بمسح مناخى للمناطق التي تتوفّر فيها الطاقة الهوائية بكمية صالحة للاستغلال ، وتبين أن مناطق الجليل ومرج ابن عامر وجبل الكرمل وعرافة (Arave) في النقب هي المناطق الصالحة لإقامة منشآت استغلال الطاقة الهوائية ، وأجريت تجارب ناجحة على محرك صغير طاقته ٣ كيلو وات في إيلات خلال ٣ سنوات متّوالة . . ونتيجة للأبحاث والدراسات المستفيضة وقع الاختيار على منطقتين لبناء المنشآت الخاصة باستغلال الطاقة الهوائية واستخدامها . . وأقيم في كل محطة برج عالٍ يبلغ ارتفاعه ٤٠ متراً . ونصبت في أعلى البرج الأجهزة العلمية الدقيقة مثل : جهاز قياس سرعة الرياح (Ane Mograph) وقياس اتجاه الرياح (Aue Montez) وقياس ضغط الهواء (Manometer) وقياس طاقة الرياح (windenergy counter) واستخدم في إحدى المحطات طوربين هوائي ؛ لتوليد الكهرباء تبلغ طاقته ٢٠٠ كيلو وات .

وتقوم محطة هامة للطاقة الهوائية في حيفات هامور Givat Hamore في مرج ابن عامر . . وتبين الأرصاد التي سجلتها هذه المحطة حول سرعة الرياح في شتى الاتجاهات ، أن سرعة الرياح تزيد عن عشرة أمتار في كل ثانية كلما ارتفعنا في الاتجاه مقدار ١٠٠ متر . . وهناك محطة أخرى في شمالى غرب النقب . . وبناء على الأرصاد التي سجلتها هاتان المحطتان خلال ٥ سنوات قامت السلطات المختصة ببناء ٢٢ مركزاً جديداً لتوليد الطاقة الكهربائية للأغراض الصناعية بواسطة الرياح . وبلغ مقدار الطاقة الهوائية المسجلة بين ١٣٠٠ - ١٢٠٠ كيلو وات ساعة في المتر المربع سنوياً ، وتستغل الطاقة الهوائية حالياً في إسرائيل لرفع المياه من الآبار وتوليد الطاقة الكهربائية .

## الطاقة الشمسية (Solar Energy):

قال : تدل الأرصاد المناخية على أن إسرائيل تتمتع خلال السنة بمدة ٨ أشهر تكون فيها الشمس مشرقاً إسرايلاً كاملاً دون غيموم . وهذا ما يشجع الخبراء على دراسة إمكانات استغلال الطاقة الشمسية في الأمور الصناعية ، ونجح الخبراء الإسرائيليون حتى الآن في استخدام الطاقة الشمسية في كثير من التطبيقات الصناعية .. فالمدارس في النقب تحتوي على سخانات شمسية لتسخين المياه والتدفئة المركزية . وتحتاج الطاقة الشمسية بواسطة أجهزة خاصة تسمى لوحة التجميع المسطحة (Flar plate collector) حيث يمكن بواسطتها تسخين المياه باستمرار .

وحقق العلماء في معهد النقب عام ١٩٥٨ مشروعًا ضخمًا لتوليد البخار بواسطة الطاقة الشمسية .. ولقد أقيمت منشآت كبيرة . تتضمن أجهزة للتجميع (الجواع) (Solar motors) ومركبات شمسية (Collectors) ومركبات (Concentrators) واستخدمت في أجهزة التجميع مرايا من الألミニوم أسطوانية مخروطية Cylindricol Parabolas تعمل على جمع الأشعة في نقطة اجتماع واحدة (بؤرة) وهذه المرايا ترتكز على محور شرق - غرب وتتجه نحو الجنوب ، وتحرك الأسطوانات الجامدة أليًا باتجاه حركة الشمس .. وينتج هذا المصنع طنًا من البخار يومياً .. وهناك إمكانية أخرى لاستغلال الطاقة الشمسية عن طريق بناء أحواض شمسية خاصة تكون قليلة العمق وقاعدتها مطلي بطلاء أسود اللون .. فعندما تسقط أشعة الشمس على ماء يسيل على سطح أسود قليل العمق .. فإن الماء يتبخر بسرعة .. وتعتبر محطة الطاقة الشمسية القائمة على شاطئ البحر الميت من أهم المحطات التجريبية في هذا الصدد .

وحدث تطور هام في استخدام الطاقة الشمسية في عام ١٩٦٠ .. إذ نجح الخبراء الإسرائيليون في صنع براادات شمسية تقوم على استخدام تيار دائم من بخار الماء وبعض المركبات الغازية ، وتمكنوا من الحصول على البخار بواسطة جهاز خاص من المرايا والعدسات المتحركة باتجاه حركة الشمس .. وفي نهاية عام ١٩٦١ بنت

السلطات المختصة ٤٥ محطة لقياس الطاقة الشمسية ، وزودت كل منها بجهاز لقياس مدة الانقسام أو الإشعاع (Insoletoê) يعرف باسم هيليوغراف (Heliograph) وجهاز قياس الطاقة الشمسية المعروف باسم (Actmometer) الذي يقيسها بالشارة في كل سنت مربع وفي كل دقيقة ، وغير ذلك من الأجهزة الدقيقة التي تلقى ضوءاً على العلاقات القائمة بين الطاقة الشمسية وأوضاع المنطقة الجغرافية من حيث الارتفاع عن سطح البحر وخط الطول والعرض الجغرافيين» .

\*\*\*

هكذا يبني اليهود دولتهم في فلسطين تحت علم إسرائيل .. فماذا يصنع المسلمون في أقطارهم الفيحة؟!

عندما شكا رئيس وزراء مصر السابق الدكتور مصطفى خليل من أن الدولة تدفع أربعة جنيهات ثمناً لعبوة أنبوبة (البوتاجاز) تسائلت : أين الطاقة الشمسية؟ ولماذا استغلت في فلسطين المسروقة ، ولم تستغل في أراضينا الواسعة؟ لقد قال حافظ إبراهيم من خمسين سنة :

شمسهم غادة عليها حجاب  
شمسنا غادة جلاها السفور

هل نحن مهرة في الغزل وحسب؟ وأين صرخ علماء الدين بإعداد ما نستطيع من قوة؟  
لا صرخ ولا همس! .. لأن هناك شغلاً بقضايا ، وخلافات فرعية .

والصغار دائمًا يهتمون بالصغار فإذا رأيت من يهتم اهتماماً هائلاً بقبض اليدين في الصلاة .. فهو فوق السرة أم أعلى الصدر .. ويستثير ذلك أعصابه أكثر مما يستثيره قتل عشرة آلاف مسلم في (تشاد) فاعلم أنك أمام مسخ من الخلق لا يؤمن على دين الله ولا دنيا الناس .. وهذا النفر من المتدينين عبء على الأرض والسماء .

والأمة التي تسلم زمامها إلى هذا الإنسان المخبول إنما تسلمه بجزار .  
ودين الله أشرف من أن يتحدث فيه هؤلاء الحمقى .

\*\*\*

## الباب الثاني

### نظرة على واقعنا السياسي

## مدخل

شق الإسلام طريقه إلى آفاق العالم في وجه مقاومات عديدة متصلة ، كانت قوى الشر والجهل تتشبث بها في كل مكان ..

ولولا الصلاحية الذاتية للإسلام ، ولو لا تجاويه مع نداء الفطرة واتجاهات العقل لانهزم في أكثر من ميدان ، وأصبح حديثاً يروى لا حقيقة قائمة !!

ولنضرب المثل من «مصر» التي نعيش فيها وتحتمي الإسلام بصدرها بنيها .

ولقد شرحا في موضع آخر كيف انتشر الإسلام بها ، كانت مصر مستعمرة رومانية ، وشاء الله أن تعتنق النصرانية على غير هو من الرومان الذين كانوا وثنيين .

وحاول المستعمرون بكل وسائل البطش فتنة المصريين عن دينهم ، وسال الدم غزيراً في المدائن والقرى ، ومع ذلك كله تكسرت أمواج القوة أمام صلابة المعتقد ، وبقى المصريون على دينهم الذي ارتبوا .

ثم اعتنق الرومان النصرانية على مذهب في الإيمان لم يعرفه المصريون ، وحاول الرومان مرة أخرى أن يشدو المصريين إلى وجهتهم ، وبدأ عصر آخر من الاضطهاد ، وفي تلك الأثناء دخل العرب مصر يحملون تعاليم الإسلام . فماذا حدث ؟

إن الفاتح المشتبك مع الرومان عرض الإسلام على الناس عرضاً نظرياً عابراً ، ولم يحاول إخراجهم ليسلموا ، كل ما طلبه عون مالي تافه ليستطيع الاستمرار في مقاتلة الرومان مع إراحة الجماهير النصرانية من أعباء هذا القتال !

وهنا يقرر التاريخ حقائق ذات بال ! إن الشعب الذي بذل دمه ضد الرومان دفاعاً عن ديانته التقليدية أخذ يتحول رويداً إلى الإسلام !

ويستحيل على عاقل أن يرد ذلك إلى التخفف من عباءة مالي ، إلا إذا كان الإنسان  
يستسهل بذل الروح ويستصعب دفع قروش !

والغريب أن أحد الولاة السفهاء هاله أن أعداداً كثيفاً من المصريين دخلت في  
الإسلام وأن الضريبة المفروضة نقصت ، واضطربت بذلك موارد الخزانة .

فماذا صنع هذا الوالي الأحمق؟ استبقى الجزية على من يسلم من النصارى!  
ومع ذلك بقى المصريون يدخلون في دين الله أفواجاً ، ويدفعون المال المطلوب .  
حتى جاء عمر بن عبد العزيز فكتب إلى حاكم مصر يقول له : ويحك إن محمداً  
بعث هادياً ولم يبعث جابياً ، ضع الجزية عنمن أسلم .

فاستراح المسلمون الجدد من الظلم النازل بهم ، أو الفتنة التي تصدهم عن سبيل الله .  
وظاهر من هذا السياق التاريخي الحاسم أن المصريين أثروا الإسلام عن حب ، وأن  
إعجابهم به هو الذي دفعهم إليه ، وأنهم قاوموا بعض العرب السفهاء الذين عرقوا  
خطاهم وهم يحفون إلى اعتناق الإسلام !!

إن هذا المنظر الغريب لم يكن حكراً على وادي النيل ، فقد شرق الإسلام وغرب ،  
وطوى السهول والجبال ، والطاقة الفذة التي يندفع بها هي صلاحيته الذاتية أولاً ثم  
أهل الفداء والعبادة من الفقهاء والدعاة والقراء والتجار ، وقليل من الحكام الطيبين .  
لم تكن أجهزة الحكم مشغولة بنشر الدين أو مهتمة باستغلال سلطتها في إكراه  
الناس عليه ..

كان الحاكم المسلم أشبه بتاجر يفخر بنفاسة ما عنده من سلع فهو لا يحسن العرض  
ولا الإغراء ولا استجلاب «الزبائن» .

حاجة الناس إلى الأجدود ستضطرهم إلى الزحام على بابه .



على حين كانت هناك سلع مغشوشة قيضاً القدر لها سماوة مهرة يسحرون بها الأعين ويستدرجون السذج .

ومضت القرون والإسلام بما له وما عليه ينطلق هنا وهناك ويشتبك مع القوى المناوئة في حرب سجال ، ثم تكاثرت الفتوق والخيانات في الجانب الإسلامي ، وطلع القرن الرابع عشر على أمة أنهكتها العلل ، ودين ليس له رجال ، فانفرط العقد كله ، وتفرق المسلمون شذر مذر ، واستنسروا بأرضهم البغاث ، وحكمتهم شراذم دخيلة من الملحدين ، واليهود ، والنصارى ، الذين لا تصح لهم صلة بالسماء .

ما الوضع في نهاية القرن الرابع عشر ؟

استتمكن أعداء الإسلام في خنقاهم ، فتم لهم تمزيق جماعته الكبرى أشلاءً منثورة على صعيد القارات الخمس ، وانشغل كل شلو بنفسه بما يدرى عن صنوه شيئاً ، ثم قامت كيانات مستقلة للمسلمين ، افتقدت روح الإسلام الحقيقة ، واجهت تركة ثقيلة من التخلف ومضاعفات النزف الاستعماري لثرواتها ، ولم تستطع هذه الكيانات أن تحفظ كرامة الإنسان المسلم في داخلها ، ولا أن تعرف له بآيسير حقوقه في الشورى والمشاركة في الحكم .

يزيد تعداد المسلمين في العالم أجمع على ألف مليون نفس . وقد ذكر الشيخ محمد المنتصر الكتاني في محاضرة له بمكة المكرمة ، تستقى معلوماتها من هيئة الأمم المتحدة أن المسلمين ٨٢٧ مليوناً من الأنسف ، ثلثهم يعيشون (أقليات) في سلطات حكومات شيوعية ووثنية ونصرانية والباقيون يحيون في دول مستقلة بلغت ٤٠ دولة .

و قبل أن نتحدث عن أحوال الثالث والثلثين في الماءات عاجلة نذكر أن هناك حرب إحصاءات مزورة يشنها أعداء الإسلام على أمتهم السكري كي يزيدوها بلبلة وحيرة . إن السنغال يقطنها أكثر من ٩٥٪ من المسلمين ، وحكومتها نصرانية .

وتنزانيا المكونة من زنجبار وتنجانيقا يقطنها أكثر من ٨٥٪ من المسلمين وحكومتها نصرانية ، تعمل بحرارة لضرب الإسلام في وسط إفريقيا وشرقها .

وهناك أعداد مكذوبة عن نصارى غانة وجنوب السودان توهם أنهم أغلب السكان وهم في الحق بين ١٥٪ و ٢٠٪ ولا يقل المسلمون عنهم عدداً .

ومع ذلك فقد صنع الاستعمار العالمي عشرات الدول النصرانية في قارة إفريقيا وغيرها ليكتم أنفاس المسلمين داخل سجونها المعتمة .

وقد أشاع موارنة لبنان أنهم كثرة السكان مع أنهم لا يبلغون ٢٠٪ من تعداد البلد الذي يراد تنصيره بالخدع طوراً وبالسلاح طوراً؛ ليكون بعد تهويد فلسطين قلعة أخرى لضرب الإسلام ورده إلى الصحراء كما يقولون . . !!

إن المسلمين لا يقلون عن ألف مليون<sup>(١)</sup> ، وإن كانت حرب الإحصاءات تبرز غير ذلك .

ولست متحمساً لإثبات ما أقول ، فلو كان المسلمون ضعف أعدادهم الصحيحة ما أغناهم ذلك شيئاً بعدما أثبتت التجارب أن القلة العاملة خير من الكثرة العاطلة .

بيد أنني أريد فحسب لفت النظر إلى صنوف المؤامرات التي تبيت لهذا الدين ولأتباعه المقهورين في كل قطر .

والجهود تبذل الآن بإصرار وقوة لصرف المسلمين عن دينهم ، وتجهيلهم في تراثه وقيمه ويومه وغده .

وبديه أنها أدنى إلى النجاح وسط «الأقليات» المرهقة المغلوبة على أمرها ويتم صرف المسلمين عن دينهم بوسائل لا عبرية فيها . .

---

(١) ثبت باليقين القاطع والإحصاءات أن المسلمين يزيدون الآن على ألف مليون نسمة في العالم أجمع .

قال لى مسلم إندونيسى : إن إحدى شركات المياه الغازية قبلت أن يعمل بها رجل مسلم بمربى حسن ، وبعد عام من استقرار أمره واجتماع شمله فوجئ برئيس الشركة يقول له : إن أمامك مهلة شهر لتدخل فى النصرانية وإلا فصلت ، وقال الرئيس معتذراً أو مؤكداً : هذه هى الأوامر التى صدرت له من الجهات العليا ..  
وتنصر البائس ..

وقرأت فى تقرير عن مسلمى أستراليا مقدم إلى جامعة الملك عبد العزيز أن «فلانا» قدم من إسطنبول لاجئاً إلى القارة الجديدة يبتغي الرزق ، وكان رب أسرة كبيرة ، وطرق الأبواب الموصدة فلم يفتح منها باب ، وعرض عليه التنصر هو وأسرته ليضمن العيش ، وقبل التركى الهارب من بلده أن يرتد عن دينه .

قال الدكتور حسن باجودة مقدم التقرير : إن هذه الأسرة بلغت الآن مائتى نفس ، منها مائة وستون من الكاثوليك وأربعون من البروتستانت .

لقد قلت : إن أعداء الإسلام لم يقوموا بحيل عبقرية لينالوا من أمته ، إن وسائلهم عادية ، والقانون - كما يؤكدون - لا يحمى المغفلين .

وإذا عجز المسلمون عن خلق أوضاع اقتصادية تحمى عقائدهم ، وإذا عجزوا وهم فى داخل بلادهم عن أن يحترموا حقوق الإنسان المسلم وكرامته وحرية رأيه وحقه فى حكم نفسه - إذا عجز المسلمون عن ذلك - فلا يجوز أن يلوموا المتربصين بهم ، المخطفين لأبنائهم .

وإنه ليحزن فى النفس أن يكون لدينا أغنياء يبذلون الألوف المؤلفة فى إشباع الشهوات ، وتجف أصابعهم عن بذل شيء فى حماية الأرض والعرض والإيمان والشرف .

إن ألف مليون مسلم أو يزيد الذين ينتشرون الآن على ظهر الأرض يواجهون

مستقبلاً غامضاً ، وتسنوى القلة والكثرة أمام هذا المستقبل ؛ لأن الإسلام الذي يجمع بينها رباط منكور أو هو رباط ثانوى في أحسن الظروف ، والرباط الأول هو القوميات الضيقة أو الموسعة .

نعم ، إن القوميات كلها - وأولاها القومية العربية - تعد الإسلام ضيفاً على الوطن ، ربما كان ضيفاً خفيفاً أو ثقيلاً حسب المزاج الوطني ..

فإذا حاول هذا الدين التذكير بحقه وألمح إلى أنه صاحب البيت كان الجواب العجل : خذ عصاك وارحل ، ليس الولاء لك ولا الدفاع عنك .

وعندما استفحلت الأزمات السياسية ، وجاءت اليهودية هاجمة علينا من أطراف الأرض قررت القوى المعادية للإسلام أن تستبعده من المعركة ، ورأينا عجباً ..

رأينا «بيجين» اليهودي البولندي يطرد عمد القدس والخليل ونابلس ، ويصبح : هذه الأرض باسم التوراة لى وحدى .

واستحينا العرب أن يلوذوا بالإسلام مدافعين ، أو يذكروا اسمه في أي مجال ، أو أن يقيموا نظمهم السياسية والاقتصادية على أساسه .

لا إسلام هنالك ، لا تنادي باسمه ، لا تجتمع عليه .. ربما طلب عند الغرق لأن الضرورات تبيح المحظورات وعندئذ يطلب ليكون دوره ثانوياً وحسب .

إن العالم الإسلامي ، والجماعة الإسلامية ، والتضامن الإسلامي ، والأخوة الإسلامية كلمات جوفاء الرنين قد يكون لها في عالم الخطابة دوى ، أما عالم الواقع فكلمات لا يجوز أن تذكر ..

وخلال القرن الرابع عشر ، وقبله تمكّن أعداء الإسلام كما قلنا من تقطيع الكيان الكبير ، وشغل كل كيان محتل أو مستقل بقضاياها الخاصة فهو يلهث وراءها لا يذكر غيره ولا يلوى على شيء ..

وفي ذلك الجو النكد وقعت مذابح رهيبة بين جماهير المسلمين المبعثرة في المشارق والمغارب أذكى ما علق بذهني منها خلال العام الأخير :

١ - في الدورة الحادية عشرة للمؤتمر الإسلامي عرضت مؤسسة مسلمي «كمبوديا» الذين كان عددهم ٧٠٠٠٠ فأصبحوا بعد سيادة الشيوعية ٢٠٠٠٠٠ .

أين ذهب نصف مليون مسلم؟ تلاشوا في صمت! فإن عصابات «الخمير روج» التي ملكت السلطة أبادت خصومها من الشيوعيين أنفسهم ، حتى إن الأمير سيهانوك الشيوعي المعروف فر من وجهها ، فكيف تكون معاملة المسلمين؟

وقد يظن أنهم فروا مع جماهير اللاجئين إلى «تايلاند» .

ولكن تايلاند تضطهد رعاياها المسلمين وتضن عليهم بحقوق الإنسان ، ويوجد بها أربعة ملايين مسلم يعانون الضياع والهوان .

هل كان مسلمي «كمبوديا» مهرب آخر؟ مثلما أتيح لنصارى «فيتنام»؟ كلا إن العالم المسيحي استقبل الفارين من الحكم الشيوعي في «فيتنام» وأغلبهم من صنع الحركات التبشيرية الناجحة .

أما المسلمون في هذه البقاع النائية فمن يحس أزمتهم ، ويفتح قلبه وأرضه لهم ؟ لقد تركوا الكى يهلكوا في صمت .. ولقد هلكوا وال المسلمين سكوت في كل مكان .. !

٢ - جرب الروس في أفغانستان بعد احتلالها غاز الأعصاب ، وتمكنوا به من إبادة قرية إسلامية كاملة ، وانطلقت إشاعة المخنقة نزلت بقرية «خير الله» والتي تحولت بعد إلى مقبرة كبيرة ..

قالت صحيفة الأخبار في عدد ١٤٠٠/٦/٨ : إن محطة التليفزيون الأمريكي

«سى. بى. إس» أرادت استقصاء الحقيقة فأرسلت بعثة خفية إلى أفغانستان؛ لترى هل حدثت حقاً هذه الفظائع المروية؟ وهل لوثت «موسكو» وجهها إلى هذا الحد؟ هل وقعت بالفعل مجزرة «خير الله» تلك القرية التي قتل فيها بطريقة جماعية ألف ومائة رجل وامرأة وطفل؟ وهل توجد أدلة قائمة على استخدام الروس لغاز الأعصاب؟ لم يزد أعضاء البعثة على خمسة من الصحفيين والفنين وصاحبهم طالب من جامعة «هارفارد» يدرس علوم الشرق الأوسط، ويجيد اللغة الفارسية، ويستطيع القيام بأعباء الترجمة..

وعندما انطلقت البعثة لأداء عملها انضم إليها دليل من أحد زعماء المقاومة وقد اسغرقت الرحلة ستة أيام حافلة بالأخطار، قطع الرجال المغامرون خلالها أكثر من مائتي ميل بحثاً عن القرائن والشهود، أطلقوا خلالها لحاصم، وارتدوا زي الأفغان المحلي؛ إمعاناً في الاستخفاء.

ومن أهم ما سجلته البعثة أن رجال المقاومة البواسل كانوا يعرضون عنهم ويشيرون بوجوههم عندما يعلمون أنهم أمريكيون؛ لأن الموقف الأمريكي بإزاء الروس كان هزيلاً، لم يزد عن مقاطعة الألعاب الرياضية في «موسكو».

وجاء في التقرير أن المقاومة تلتحم بالشعور الديني، وأن الإسلام من وراء هذه الحرب الداعية المستمية وأن المجاهدين كانوا يقولون: حربنا مع السوفيت سوف تستمر مشتعلة ولو مائة عام وسوف يخوضها الآباء ويرثها عنهم الأبناء، حتى آخر رجل..

وتبعت البعثة الأمريكية أنباء القرية الذبيحة، وتحدثت مع شهود الحادث الذين أفلتوا من الموت، وتفقدت الأطلال الخاوية والآثار الموحشة، واستيقنت أن أمراً بالإفشاء الجماعي قد صدر ونفذ بدون اكتراض !!

أصدرته إحدى القوتين العظمى فى العالم ضد ناس يحملون البنادق البدائية  
دافعاً عن دينهم وأرضهم .

تقول الأستاذة / مها عبدالفتاح بعد إثبات القصة الفاجعة : أين نصيب «خير الله»  
من الدعاية (الميلودرامية) على امتداد العالم الكبير؟ ولماذا لا يحظى المقاومون الأفغان  
بعشار البطولة التي ظفر بها الفيتناميون الشماليون وهم يقاومون الولايات المتحدة !  
وتتساءل كذلك هل ذهب صحافى مصرى أو عربى ليعرف ما هناك ، ولزيود العرب  
وال المسلمين بالواقع من مصدرها الأول ، لا نقلأً عن وكالات الأنباء العالمية ؟  
والإجابة على هذه الأسئلة معروفة لدينا ، إن التعتيم على الجهاد الإسلامى خطوة  
دولية مقررة ، وما نرتاب فى أن الدم الإسلامى أرخص دم فى القارات الخمس ..

ونحن نعرف بواعث هذه الخطة ، ولكننا لاتزال نسائل العرب والمسلمين ما معنى  
تجاهلهم لآلام إخوانهم وتبلدهم بإزائها؟ واستغراقهم فى المجون وأهلوهم يبادون ؟؟  
أنا لا ألوم الولايات المتحدة على هزال موقفها من الروس ، فإن هذا الموقف أشرف من  
مواقف عرب قرروا أن يلعبوا فى موسكو مع الجلادين الذين استباحونا !!

إن المجاهدين الأفغانين - مثل كثيرين غيرهم - يهلكون والمسلمون ساكتون ؛ لأن  
الجسد الواحد أمة الشلل أجزاء كثيرة فيه ، فما تنتظممه دورة إحساس مشترك ..

٣ - فى رجب سنة ١٣٩٩هـ . طالعت عدداً من صحف المملكة العربية ودول  
الخليج ، قرأت وأنا كئيب مصريع ٥٠٠٠ مسلم فى تشاد ، كانوا تجاراً من شمال البلاد ،  
أى من الكثرة المسلمة يعملون فى الجنوب أى بين الزوجين نقلتهم بعثات التبشير  
إلى النصرانية ..

وفي فورة حقد أعمى وثبت العصابات الصليبية على التجار المترفين فى أعماق  
القرى ، واغتالتهم واحداً واحداً ، وغنمـت رؤوس أموالهم !!

وشاع النباء الدامى ، فلم تعلق عليه دول الجامعة العربية ؛ لأنه لا يعنيها ! وقرأه عوام المسلمين ببلاغة رائعة ، فقد دربهم الغزو الثقافى على استقبال هذه المصارع ببرود !

وكنت مدعواً لزيارة الكويت لإلقاء محاضرات بها ، وكان مهلك هذه الألوف من الموحدين المستضعفين يؤجج النار بين أضلاعى ، وتحدثت إلى رواد «جماعة الإصلاح الاجتماعى» وذكرت أن مثل هذا الحادث وقع لحسود من التجار السودانيين المسلمين كانوا قد انتقلوا من الشمال للعمل فى الجنوب فوثب عليهم عملاء التبشير ، وأذاقوهم الحتف فما نجا منهم أحد !!

وأقررت أن نحدد يوماً للشهداء ، أو يوماً نسميه : يوم الدماء نبكي فيه قتلانا ، وإن كانت الدموع شر الأسلحة .

قلت : إن صعلوگاً من اليهود يخدش ظفره يتحرك له مجلس الأمن ، أما نحن فإن الألوف منا يقتلون فما يكتثر لصابهم أحد في الهيئة الدولية ..

وإذا لم نغصب نحن لصائنا ، فلا نلوم الذين يستقبلونها وهم لا هون ..

واستمع الناس إلى الاقتراح وهم محزونون !

٤ - في ١١ من المحرم/١٤٠٠هـ نشرت صحيفة الرائد التي تصدرها ندوة العلماء في (لکھنؤ - الھند) هذا المقال تحت عنوان : «سقوط ألف مسلم في مذبحة بالکامیرون» !!

قالت الصحيفة الھندية : أذيع تقرير إخباري لراسل صحيفة «صندای تلغراف» البريطانية عن انتفاضة كبرى عممت المنطقة الشمالية من «الکامیرون» - وهي المنطقة الإسلامية - وقد قتل فيها ١٤ جندياً وجراح الحاكم الإقليمي مما أدى إلى استدعاء قوات الجيش لقمع الثائرين وتأديبهم ..

قال المراسل الإنجليزى : إن حوالى ألف شخص بين رجل وامرأة وطفل سقطوا في

المذبحة الانتقامية ، وإن مجتمعات سكنية كاملة تمت إبادتها ، ثم جرت محاولة لاغتيال «أحمدو اهيدجو» رئيس الجمهورية وهو مسلم من الشمال .

قال المراسل : يبدو أن سبب ما حدث هو التوتر المتزايد بين الجنوب المسيحي والشمال المسلم .

قال : ويدعى المسلمون أن النصارى الجنوبيين يحصلون على ميزات خاصة ، وأن التفرقة في المعاملة ملحوظة ، وأن النصارى يفوزون بمعظم المناصب الحكومية وأن العنصر المسيحي هو الغالب في تكوين الجيش .. !!

هذه هي مزاعم المسلمين كما يرويها المراسل الإنجليزي .

ثم قال المراسل المحايد بعدها : إن أعمال القتل بين المسلمين بدأت منذ ١٩٧٩/١٠/٢٠ عندما بدأ المسلمون في «مكارى» وما حولها يحتاجون على سوء استخدام موظفي الحكومة للأموال التي يحصلونها لغرض إنشاء المدارس هناك - وهؤلاء الموظفون جميعاً جنوبيون - ويقول المسلمون : إنه لم يتم إنشاء المدارس المطلوبة ، والقليل الذي أنشئ بنى بالطين لا بالأسمنت ، وتقول المصادر الحكومية : إن المعارضين لقوا تشجيعاً من أحد رجال الدين القادمين من «تشاد» فقد ظل عدة أيام يعظ المسلمين ويحرضهم على التمرد ، ورفض تصرفات الحكومة .

ولم تكن السلطة الحاكمة تقدر خطورة الموقف بادئ الأمر فاكتفت بإرسال «عثمان مى» حاكم الإقليم الشمالي ومعه أربعة عشر رجلاً من رجال الشرطة للتفاوض مع المتمردين ..

ولكن المتمردين قتلوا البعثة الحكومية ، واستطاع رئيسها الهرب بعدما أصيب برصاصة في قدمه ..

وفي اليوم التالي تحرك الجيش ، وأنزلت الطائرات المروحية جنوداً كثيرين في المنطقة الغاضبة ، وبدأت للفور أعمال الحرق والقتل ، وذكر أحد الفلاحين الهاربين أن الرصاص كان يطلق على كل شخص ، وأن النار كانت تشعل في كل كوخ .. ولم تقع مقاومة تذكر ..

ويؤكد اللاجئون أن القتلى نحو ألف شخص ، وذكرت السفارة الأمريكية في «جامينا» أن التقارير التي جاءتها تشير إلى أن القتلى من المسلمين بلغوا ثمانمائة قتيل فقط .

وبالرغم من أن المنطقة أمست كلها في أيدي الجنود بعد سحق التمرد فإن الوسائل البشعة التي اتبعوها في قتل المسلمين أثارت مراة شديدة في كل نفس ، وظهر أن الحكومة تريد تلقين المسلمين درساً يمنعهم من محاكاة مسلمي «تشاد» أ.هـ- الصنداي تايم بتصريف قليل .

إنني أجزم بأن هذه القصة لم تستلفت أجهزة الإعلام في الشرق الأوسط كله ، لا نقاًولاً نشراً ، فليس فيها ما يشير !

ما قيمة قتل ألف مسلم في بلد اسمه «الكاميرون» ؟  
إن أجهزة الإعلام قد تهتم بإذاعة مباراة لكرة القدم ، يحتشد مئات الآلاف لرؤيتها ،  
نعم فإن الناس عندنا تسحرهم فلسفة الأرجل المتحركة في الميدان المائج .  
أما فلسفة القلوب المتوجهة باليقين .

وأما فلسفة العقول الباحثة عن الحق .

أما فلسفة العقائد المتعلقة للحياة - فهذه أمور ليست ذات بال .. !!  
وما ينقضى عجبي من إهمال العرب لأسامة الكاميرون هذه وإقامة جدار من الصمت دونها .

أما مسلمو الهند فقد شعروا بالمصيبة ونشروها ، ولو لا يقظتهم الإسلامية ما عرفتها  
أنا ..

وأتساءل أخيراً : هل التفرقة العنصرية التي شكا منها المسلمون كانت موضع  
تحقيق ؟ هل سرقة حقوقهم المدنية والعسكرية أغضبت أحداً ؟  
أم المقصود أن الأرض الإسلامية المترامية الأطراف يسرح فيها الصليبيون ويحتازون  
لأنفسهم ما يريدون دون أن ينبع أحد بنت شفة . . . ؟

في هذه العجلة لا أريد أن أسجل خسائر المسلمين وهزائمهم على مدى قرون من  
الزمان مثلاً ، كلا ، إنني أريد تسجيل ما علق بذهني من آلام هذه الأمة خلال عام .  
ولم أتعرض لما ذاع وشاع من مأساتهم في الفلبين ، حيث القتلى ألف ، ولا إلى ما  
استخفت أنباءه من مذابح المجاهدين في بعض البلاد العربية .

لقد أردت فقط إبراز الانهيار السياسي للدولة الإسلامية الغاربة ، والآثار المخزية لهذا  
الانهيار الذي يصحبنا ونحن نستقبل قرناً جديداً .

كان المسلمون في القرون الأولى عشر معاشر عددهم الآن ، بيد أنهم كانوا أعز جانباً  
وأحلى أنفاً .

وليس صعباً أن تقوم لهم دولة كبرى تلم شملهم وتأسو جراهم ، فإن المسلمين  
يقاربون «الصين» في التعداد ، وقد قامت للصين دولة كبرى ، واعتبرت اللغة الصينية  
من اللغات الخمس التي كتبت بها مواثيق الأمم المتحدة .

على أنني لا أرى ذلك الحل الأوحد أو الأمثل . . فإن نظام الخلافة يجب أن يدرس  
 بدقة من خلال التعاليم الإسلامية والتطبيقات التاريخية على سواء .

إن الخلفاء على مدى القرون الأربع عشر كانوا من بنى أمية والعباس وعثمان .

ولم يقل أحد إن الله سبحانه وتعالى خص هذه الأسر بالعقرية والتقوى ، وجعل نفراً منها يحتكرون قيادة المسلمين أجمعين جيلاً بعد جيل .

إن من هؤلاء الخلفاء من اقترف في جنب الله المنكر ، ولو جرد من أردية السلطة وقدم إلى قضاء عادل لأمر بضرب عنقه ..

وقد تنبأ صاحب الرسالة الخاتمة - ﷺ - بتحول الخلافة الراشدة إلى ملك عصووض .. ومن حق الأمة التي تأذت رسالتها وتردت سيادتها أن تعيد النظر مرة ومرة في الأسلوب الذي تحكم به جماعتها وتبليغ به دعوتها .. !!

\*\*\*

## الاستبداد السياسي

إن الاستبداد السياسي داء دوى ، وليس أسوأ منه إلا تجاهل أثره والتعامى عن خطره !

وللشوري مفهوم غامض عند بعض المحدثين الإسلاميين ، ومفهوم مضاد لحقيقةها عند بعض آخر ، ولو وقع زمام الأمور في أيديهم لاعادوا حكم الملك الغوري في القاهرة ، أو السلطان مراد في الأستانة .

وأحدّهم ذكاء من يعيد السلطة لصاحب الكلمة الفاجرة : («أمير المؤمنين» هذا ، فإن هلك فهذا ، فمن أبى فهذا) - مشيراً إلى سيفه - !!

وهذه الميوعة في مفهوم الشوري الإسلامية لا تزيد المسلمين إلا خبلاً وفوضى .. وسببها قلة الفقهاء أو انعدامهم في ميدان الدعوة ، وازدحام هذا الميدان بذوي المعلومات الكاسدة أو التجارب القليلة أو الحماس الأجوف ..

إن المفروض في الشوري أن تقى الأمة سيئات شتى ..

منها إعجاب الغبي برأيه ، ورغبته في فرضه على الناس وقد يقى : من البلاء أن يكون الرأى لمن يملكه لا لمن يبصره ، وقد نفذ هذا فرعون عندما قال لقومه : ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ [غافر: ٢٩] .

ومنها إن المستبدین يضعون أنفسهم فوق المسئولية ، إنهم يخطئون الخطأ الرهيب ، فإذا افتصروا كان غيرهم غالباً كبش الفداء ، والشوري إذا لم تق الأمة هذا البلاء فلا معنى لها .

إن كل المصائب التي تحيق بالعرب الآن سببها هزيمتهم سنة ١٩٦٧ ، والغريب أن صانع هذه الهزيمة أو بطلها الفذ لم يوجه إليه لوم ، أو ينسب إليه عيب .

والحكم الفردي عظيم المهارة في التحرير والتزييف والنجاة من التبعات . . . !

ومن ميزات الشوري أنها ترد الحكم إلى حجمه الطبيعي كلما حاول الانتفاض والتطاول ، والجماعات البشرية السوية ، فيها رجال كثيرون يوصفون بأنهم قمم . أما البيئة المنكوبة بالاستبداد فدجاج كثير وديك واحد ، إن ساغ التعبير !!

ومقابع الاستبداد بعيدة الأماء ، ومع ذلك فإن بعض الم الدينين مصاب بالرمد المزمن فهو لا يراها ، وإذا تلا نصوص الشوري في دينه قال : . . . ثم للحاكم أن يرضى على رأيه لا على الشوري !

إن التقادم لا يسقط الإثم ولا يغير قبح الجريمة ، والتقاليد الرديئة لن يخفف من رداءتها أنها ميراث العصور ، وقد كان الاستبداد الفردي أخبث التراثات التي ألت للاحرين من السابقين .

ومع تطور نظام الحكم انداحت الدائرة التي يبسط الاستبداد فيها أذاء ، ربما كان هذا الاستبداد لا يعدو قطعة أرض كانت «كليب» يضع عليها يده ، ويلقى فيها بجرؤ ينبع فيعلم الناس أن هذه البقعة أمست حكراً على «كليب» . . . !!

حتى جاء هذا العصر فأصبح الاستبداد قدرة حاكم أو جهاز حكم على فرض الإلحاد قسراً وأخذ الأجيال الناشئة به طوعاً أو كرهاً ، كما يفعل الشيوعيون حيث يحكمون . .

أو قدرة حاكم على تزوير الانتخابات العامة ، وجعل الكذب الواقع عملة متداولة شائعة ، ينظر إليها الكبار والصغار وقلوبهم منكرة وألسنتهم معقودة .

وبذلك يستقر الإلفك وينهار الخلق وتمتلئ الحياة العامة بالوصوليين من أهل الجراءة وبالبرادع من أهل الزلفى !

وقد ملأ الحكم الفردي أغلب الأقطار قديماً ، وكافحت شعوب عظيمة حتى نجت منه . وإن دفعت الثمن غالياً حتى استردت حريتها وكسرت قيودها ..

وشهدت الإنسانية عصراً من الشورى على عهد الخلافة الراشدة ، كان الحكم فيه نموذجاً رفيعاً للإنسان الطيب المتواضع ، الذين الجانب ، الرحيم بالناس ، السليم من علل التطلع والكبر ، الذي يرى الكبير أباً والصغير ابنَا والباقين إخوة . الملتزم بقوله تعالى : **﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾** [القصص: ٨٣] .

ولم تقم للشورى يومئذ أجهزة دقيقة ؛ لأن طبيعة الحياة كانت تقوم على البساطة .. مع ذلك فإن أرقى ما وصل إليه «الغرب» في حضارته الإنسانية ، أو في فن الحكم ، لم يزد عما حققه الخلافة الراشدة من أربعة عشر قرناً ..

قرأت حواراً بين الرئيس كيندي - الرئيس الأسبق للولايات المتحدة - وبين ممثل بعض الصحف الأمريكية ، قال فيه صحافي يتحرى الحقائق لأكبر زعيم في العالم : مس特朗 كيندي ، هل رحلة زوجتك إلى أوروبا على نفقتك الخاصة أم من مال الدولة .. ؟ وأدلى «كيندي» بما عنده دون تألف ..

وذكرت للفور حواراً ماثلاً دار بين عمر بن الخطاب وسلامان الفارسي : قال سلمان لعمر بن الخطاب: نرى ثوبك طويلاً سابغاً، وكلنا كميش الإزار، ما حصل أحدنا إلا على ملبس قصير، فمن أين لك هذا؟

وأحس عمر كأنه متهم باستغلال الحكم فقال : قم يا عبد الله بن عمر فحدث الناس...  
وقام عبد الله يقول : إن نصيب أبى من الشياب المفرقة لم يكن يغنىه؛ لأنه رجل طوال،  
فمنحته نصيبه ليكمل حلته..!

وأوضح الموقف ، وقال سلمان : الآن قل نسمع..!

لقد وصل الغرب إلى ما وصل إليه من حرية على جسر من الدماء والأشلاء ، أما العرب فإن الإسلام منحهم هذا الطراز من الحكم هدية من السماء ، ولি�تهم قدروا ما نالوا وصانوه !!

على أية حال إن طريقة الإسلام في إدارة دفة الحكم هي التي جعلت الشعوب تفتح ذراعيها له ؛ لأن الحكم كان عبادة لله ، ولم يكن شهوة منهوم إلى العظمة ، أو مفتون بالسلطان ..

وإدراك أن الحكم مسئولية مؤرقة هي التي جعلت الخليفة في المدينة المنورة يعد نفسه مسؤولاً عن أطراف الدولة البعيدة حتى قال عمر : لو عثرت بغلة في العراق لحسبت عمر مسؤولاً عنها ، لم لم يصولها الطريق ...

ثم جاء من رأى الحكم غنيمة تكثُر فيها الأرزاق ، كما حكوا عن هارون الرشيد ، أنه رأى غيمة مارة فقال لها : أمطرى حيث شئت فسيأتيني خراجك !

ثم جاء عبيد يرفلون في النسيج الغالي ويتطلعون إلى ما هو أنعم كما قال أبو الطيب في أحدهم :

يَسْتَخْشِنُ الْخَزَّ حِينَ يَلْبِسُهُ  
وَكَانَ يَبْرِي بِظَفَرِهِ الْقَلَمَ .. !!

والويل لأمة يكون الحكم فيها شهوة مريض بجنون العظمة ، أو شهوة مسحور باقتناه المال .. !

وفي ديننا نصوص كثيرة ترفض الرئاسة ، والحرص على الإمارة ، وتوصى بحرمان عشاق المناصب من المناصب التي يعشقون ..

وفيه ترهيب من استغلال النفوذ ، وجعل الحكم مصيدة للثراء سواء كان ذلك للمرء أم لأقاربه ..

وفيه تخويف من الظلم ، والاستهانة بالآلام العامة ، وإيصاد الأبواب دون مطالبهم .

وحسبك أن من ولى أمر عشرة من الناس جيء به يوم القيمة مغلولة يداه إلى عنقه ، فكه عدله ، أو أوبقه جوره .

ومع هذه الآثار الخامسة فإن التقاتل على الإمارة كان سمة ملحوظة في تاريخنا ، ولم يكن ذلك بداعه تنافساً في مرضاه الله وخدمة عباده ، بل كان تنافساً على حطام الدنيا ومتاعها المدبر !!

وعانت الرسالة الإسلامية والجماهير الإسلامية من سيطرة السفهاء .

وما آل إليه أمرنا في هذا القرن من سقوط الخلافة وعبودية الأمة في القارات كلها هو النتيجة المحتومة لذلك العوج .

إن الاستبداد السياسي - فيما رأينا من قريب ومن بعيد - ليس عصياناً جزئياً لتعاليم الإسلام ، ولليس إماماً لشرياع فرعية فيه ، بل هو إفلات من ربقة ودمار على عقيدته . . !!

وإنى والله أشك في إسلام عدد كبير من حكام المسلمين ، بل في إسلام عدد من حملوا ألقاباً دينية لها رنين ويريق ، وأعتقد أن بقاء الكفر في الأرض ، والزيغ في شتى الأفئدة ، يرجع إلى مسالك أولئك الذين شانوا تاريخنا ولوثوا دعوتنا ، وأعزوا من أذل الله وأذلوا من أعز الله . . .

ولكى يستبين وجه الحق فيما أقول يجب أن يعرف أن كلمة التوحيد كما تعنى إفراد الله بالعبودية ، تعنى أيضاً ما يسمى في عصرنا بحقوق الإنسان وكرامات الشعوب .

منها فهم عمر أن الناس يولدون أحراً فليس لأحد حق في أن يستعبدهم ، وأن

البشر عبيد أمام الله وحده ، وسادة أمام غيره فما يسوغ أن يتلاشى وتذوب ذاته أمام إنسان مثله .

فكيف يتخذ بعضاً بعضاً أرباباً من دون الله؟ ولماذا تنشأ أوضاع يكون الولاء فيها شخص ، يهاب أكثر مما يهاب الله ، ويرجى أكثر مما يرجى ..؟

إن الاستبداد السياسي صنع هذه الأوضاع وحمها .. قبر تحت ترابها الأخوة الإنسانية والدينية ، فليس ثم إلا فرد يرحب ويرهب وأخرون يزدلفون ويرتقبون ، ومراسم غريبة لوثنيات سياسية أعقد من الوثنيات التي احتلقتها الجاهليات الأولى ..

أما وجه الله وحكمه ، فشىء يجىء في المرتبة الثانية إن جاء .. .

إن عبادة القصور على امتداد العصور ديانة خسيسة خلقها الحكم الفردي ، وزحم محاريبها بالأقزام والأفاكين ..

وهي ديانة زاحمت الإسلام الحق وهزمته في ميدان الحياة العملية وجعلت العبريات توارى والإمعات تتكلم بصوت جهير !!

\*\*\*

## حدود السمع والطاعة بين الحاكم والمحكومين

(١)

من أمارات الإحكام في شئون الجماعة والدولة ، أن تنتقل الأوامر من الرؤساء إلى الأطراف ، كما ينتقل التيار من المولد الكبير إلى الأسلام الممتد ، فلا يقطع نوره خلل ولا يرد قوته قطع أو خبل .

إن الجسم المعافي تستجيب أعضاؤه (للإرادة) التي تنقلها الأعصاب من الدماغ المفكر فيتحرك أو يسكن وفقها .

ولن تعجز الإرادة عن بلوغ أهدافها إلا إذا اغتال الجسم ، وأصيّبت أحجزته بالعجز والشلل .

وال المجتمع الصحيح كالجسم الصحيح يشد كيانه جهاز دقيق ويضبط أمره نظام محكم ، وتعاون ملكاته العليا وقواه المنفذة تعاوناً وثيقاً يسير به في أداء رسالته كما تسير الساعة في حساب الزمن .

وقد وضع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قاعدة هذا النظام المتجاوب وجعل القيام عليه من معالم التقوى ، فإنه لن يستقر حكم ولن تصان دولة إلا إذا سادتها الطاعة والنظام .

ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : «من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن أطاع أميرى فقط أطاعنى، ومن عصى أميرى فقد عصانى».

وقال الله عز وجل : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أى : اتبعوا كتابه . ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أى : خذوا بسنته . ﴿وَأُولَئِكَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أى : فيما كلفوكم به من أمور تخدم الكتاب والسنة .

وطبيعة الحياة عندما فرضت خضوع الجسم للعقل إنما بنت هذا المصلحة الجسم والعقل جمِيعاً ، على أساس أن العقل يصدر عنه ما يضر الجسم أو يؤدي به إلى التهلكة .

فإذا استحمق امرؤ وشرع يخلط ، حجرنا عليه فوراً ؛ إنقاذاً له من شر نفسه وإنقاذاً للجماعة منه .

كذلك اطردت فطرة الله في شئون الحياة كلها :  
فقوانين السمع والطاعة التي سنها الإسلام ، بل التي وضعتها نظم أخرى وطبقتها بصرامة ، لم يقصد بها إلا حفظ المصلحة العليا للجماعة ، فكأنما أملت بها غريزة البقاء وضرورة الحياة .

ولا مجال البتة لجعلها متنفس هوى جامح أو شهوة عارضة .  
وعندما شرع قانون السمع والطاعة لم يفترض في الأطراف التي تمثله إلا قيادة راشدة تنطق بالحكمة وتصدح بالحق وتأمر بالخير ، ثم جنود يلبون النداء وينعون العوائق ويتتممون الخطة .

وبذلك تنتظم دورة القانون في الأمة كما تنتظم دورة الدم في البدن فتستقيم الحياة وتستقر الأوضاع .

أما الطاعة العميماء لا لشيء إلا لأن القائد أمر ، وأمره واجب الإنفاذ ، فذلك منكر كبير وجحالة فاحشة لا يقرها شرع ولا عقل .

روى الإمام أحمد في مسنده قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وجد عليهم الرجل في شعره قبرم بسيرتهم معه. فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله أن تعطيلونى؟ فاجتمعوا إلى حطباً ثم دعا بنا فاضرمهما فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها.

فقال لهم شاب منهم: إنما فررتكم إلى رسول الله. صلى الله عليه وسلم. من النار، يعني. كيف تقادون باسمه إليها؟ لا تتعجلوا حتى تلقوا رسول الله. صلى الله عليه وسلم، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها. فرجعوا إلى رسول الله. صلى الله عليه وسلم. فأخبروه. فقال لهم: «لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً. إنما الطاعة في المعروف».

لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً.

هذا الترهيب الغليظ يستأصل جذور الطاعة العميماء من نفوس الأتباع جمیعاً، و يجعلهم يحملقون فيما يصدر إليهم من أوامر، فلا يكونون عبیداً إلا لله ولا جثیاً إلا للحق.

إنما استکبر من استکبر من الفراعنة والجبارية؛ لأنهم وجدوا من الرّاعي من يسارع إلى إجابة أهوائهم وإطاعة نزواتهم دون بصر أو حذر، فعثوا في الأرض وعلوا علواً كبيراً . . .

ولو أنهم عندما أصدروا أوامر يُملّيها الغرور وتنکرها الحکمة وجدوا من يردها عليهم ويناقشهم الحساب؛ لترىوا طويلاً قبل أن يأمروا بباطل.

والثقة - خصوصاً في أهل الدين - تغرس حسن الظن فيما يأتون ويدرون، وتجعل الماء يتلقى توجيههم بالقبول الحسن فهو ينزل عنده مطمئناً إلى أنه يطيع في المعروف. ونحن لا نلوم إنساناً على نقاوة صدره وليونة طبعه، ولكن المؤمن لا يأذن لأحد أن يستغل هذه الصفات النبيلة فيه ليجعل منه شخصاً طائش القياد ضرير العين والقلب. وفساد الأديان الأولى جاء من طراوة الأتباع في أيدي رؤسائهم وتحولهم مع مبدأ السمع والطاعة إلى أذناب مسيرة، لا فكر لها ولا رأي.

روى أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال

عدي بن حاتم. معترضاً : إنهم لم يعبدوهم، فقال رسول الله . صلى الله عليه وسلم : « بل ، إنهم حرّموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم فتلك عبادتهم إياهم » .

فانظر كيف غدت الاستجابة العميماء شرّكاً ، وكيف استغللت الثقة لتغيير أحكام الله وإضلal عباده عن الصراط المستقيم .

إن الفراعنة والأباطرة تألهوا ؛ لأنهم وجدوا جماهير تخدمهم بلاوعى .  
والأحبار والرهبان والبابوات تألهوا كذلك ؛ لأنهم وجدوا رعايااً تنهضهم الثقة المطلقة  
وتلغى وجودها الأدبي أمام ما يصدرون من أحكام .

والشعوب التافهة في كل زمان ومكان هي التي تصنع المستبددين وتغريهم بالأثرة  
والجبروت .

وقد بلغ من حمق العامة في بعض أدوار التاريخ المصري أن قالوا : الحماية على يد  
فلان خير من الاستقلال على يد فلان ! . . . لورشح فلان حجرًا لانتخبناه . . .  
إن الحب المكين شيء واحترام الحقيقة المجردة شيء آخر .

ولشعب ما أن يعشق زعيمه وأن يصوغ فيه قصائد الغزل .

بيد أنه لايسوغ أن يتطور به هذا الحب حتى يحاكم الحقائق إلى شخصه ، بدل أن  
يحاكم شخصه إلى الحقائق .

ومن قديم عرف المصلحون والأئمة أن السمع والطاعة وسائل لابد منها لسير الأمور  
وبلوغ الغايات .

ونحن لأنمارى في المبدأ بعد ما شرحنا أصله في صدر حديثنا ، وإنما نحذر من  
الزوائد الخطيرة التي تنضاف إليه وتوسيع فيه وقتل الحقيقة والحرية باسمه .

إن الإسلام لم يشرع قانوناً ينتقص من (الاستقلال الشخصي) لأى إنسان أو يغض  
من (حريته الفكرية) .

ألم تر إلى موقف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحابته في أسرى بدر؟

لقد استشار أصحابه ما يصنع فيهم؟ فما حاول أحدهم أن يتعرف رأيه ليتملقه بتأييده، بل أدى كل منهم بما يراه الحكم الصحيح في القضية المعروضة وسار كل وفق طبيعته الخاصة.

الخليم يعرض العفو، والحازم يعرض العقاب، ولا يعنينا أن نعرف هنا من أخطأ أو من أصاب.

وفي السيرة شواهد شتى لما كان عليه السلف الأوائل من أصالة نظر، وحرية فكر، مع ما أثر عنهم من حب عميق لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما أخذ عليهم من موايثيق السمع والطاعة.

ونحن نعرف أن بعض الناس لا يحسن التفكير العام، وقد تضم إلى ذلك أنه لو ترك لكل امرئ الحق في مناقشة ما يكلف به لتسربت الفوضى إلى شئون الحكومات والشعوب.

وهذا حق، ولكن لا يصادم ما نحن بصدده تقريره، إن هناك فرائض لا يجوز خدشها ومحرمات لا تمكن استباحتها، وشئوناً أخرى هي مجال للأخذ والرد وتفاوت التقدير. وهذه لا يملكها أحد برأته، وإنما يرفع الخلاف فيها أصحاب الحل والعقد وأهل الشورى.

فإذا مرت بمرتبة البحث والعرض، فلكل ذي رأى أن يظهره وأن يدافع عنه غير منكوح ولا محقور.

حتى إذا تخفف الدرس والنقد عن الرأي الذي استقر عليه الإجماع أو جنحت إليه الكثرة، لم يبق مكان لتردد أو ارتياح أو اعتراض.

والحكومات المعاصرة - على اختلاف مذاهبها - تتحترم هذه القاعدة . ولعل هذا سر الإفراد والجمع في الآية : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فالإله واحد والرسول واحد .

أما ﴿وَأُولَئِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ فهو كثير ، وما يقرؤنه - جماعتهم أو أغلبهم - فهو محل احترام العامة .

وليس ذلك الذي أقره الإسلام في سياسة أمته بداعاً تفرد به ، فإن أمّا أخرى أقرت مثله من قبل ومن بعد . ذلك ، وليس كل من غالب على حكم بلد ما يسمى ولئ أم فيه ، تقرن طاعته بطاعة الله ورسوله . فكم أرمق قروناً من تاريخ الإسلام الربح وبقاعاً من وطنه الكبير فلا أجد ظللاً ولاية صحيحة ... !

كما أن الشئون التي يعالجها الولاة المؤثرون تتفاوت في موضوعها تفاوتاً كبيراً ، فشئون الدنيا غير شئون الدين . وشئون الدين نفسه ليست سواء ، فالأصول غير الفروع ، والنظري غير العملي .

فقد يختلف أولو الأمر في بناء جسر أو تعلية خزان ، وقد يختلف في ذلك معهم لا صلة لهذا الخلاف بطاعة أو معصية .

وقد يختلفون ونختلف معهم في فقه الصلاة ويلتزم كل منا وجهة نظره ... ولا وزن هنا خطأ أو صواب .

وقد تكلم العلماء فيمن يسمون أولى الأمر شرعاً ، والشئون التي ثرى طاعتهم فيها ديناً ، ورفعوا الغموض عن كليهما .

ولقد عجبت لخلاف وقع بين شباب من المسلمين آثاره بعضهم بتشاؤم هو :  
نحن جماعة المسلمين ، أم نحن جماعة من المسلمين ؟



والإجابة على هذا السؤال لها نتائج ذات بال .

بل نتائج ترتبط بها صيانة دماء وأموال !

فإن الذين يحسبون أنفسهم جماعة المسلمين يرون مخالففة قائهم ضرباً من مخالففة الله ورسوله ، وطريقاً مهده إلى النار وبئس القرار !

إلا أننى عز على أن يُلعب بالإسلام وأبنائه بهذه الطريقة السمجة ، وأن تتجدد سياسة الخوارج مرة أخرى ، فيُلعن أهل الإيمان ويترك أهل الطغيان .

وبم ؟ باسم أن القائد وبطانته هم وجدتهم أولو الأمر! وأن لهم حق السمع والطاعة ؟ وأن الخارج عليهم يصدق فيه قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر؛ فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية» وقوله : «من خلع يدأ من طاعة لقى الله لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية» .

وهذه الأحاديث وأمثالها وردت في منع الفتن الجسيمة التي يحدثها الشاغبون على الدولة ، الخارجون على الحكم .

وقد عانى المسلمون وعانت خلافتهم الكبرى أقسى الآلام من ثورات الحانقين والناقمين ، وربما كان سقوط الحكم الإسلامي في الأرض بسبب هذه الانتفاضات الهائلة . . .

بيد أن تعلم هذا الجنون كان أسلوب تربية وتجميع عند بعض الناس !!

أن يقال : إن الولاء للقيادة يكفر السينات ، وإن الخروج عن الجماعة يحق الفضائل ، أى إسلام هذا ؟ ومن من علماء الأولين والآخرين أفتى بهذا اللغو؟ وكيف تُلبسون الدين هذا الذي المنكر ؟

وهيئات ، فقد تغلغل هذا الضلال في نفوس الناشئة حتى سأله بعضهم : هل يظن المسلم نفسه مسلماً بعدما خرج من صفوف الجماعة ؟

ولنفرض أن رئيس الجماعة هو أمير المؤمنين وأن له حقوق الخليفة الأعظم (!) فهل هذا يؤتيه على أتباعه حق الطاعة العميماء ؟

إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يؤتَ هذا الحق ! ففي بيعة النساء يقول الله له : ﴿..... ولا يعصينك في معروف﴾ .

وعن ابن عمر - رضي الله عنهم - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» ...

وروى مسلم عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال : دخلت المسجد فإذا عبد الله ابن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة والناس مجتمعون عليه، فأتياه فجلست إليه فقال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فنزلنا منزلاً، فمنا من يصلح خباءه، ومنا من ينتضل، ومنا من هو في جسره<sup>(1)</sup>؛ إذ نادى رسول الله : الصلاة جامعة فاجتمعنا إلى رسول الله، فقال : إنه لم يكن نبي من قبلى إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمهم لهم، وينذرهم شر ما يعلمهم لهم. وإن هذه الأمة جعلت عافيتها في أولها وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتى، ثم تكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه، هذه ! ... فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتاته منيته وهو يوم بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه. ومن بايع إماماً فأعطاه صفة يده، وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع. فإن جاء آخر ينazuه فاضربوا عنق الآخر ... !

(1) الجسر - بفتح الشين - الرجل يرعى في مكانه لا يرجع إلى أهله ليلاً : المراد أن بعضهم كان في مرجعه ماشيته .

قال: فدنوت منه فقلت: أنسدك بالله، أنت سمعت هذا من رسول الله. صلى الله عليه وسلم. فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه وقال: سمعته أذناني ووعاه قلبي.

فقلت له: هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بباباً بالباطل ونقتل أنفسنا، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

قال: فسكت ساعة. لحظة. ثم قال: أطعه في طاعة الله، واعصه في معصية الله ...

سياق الحديث كما ترى في توفير الأمن لحكم قائم ، و الخليفة مبایع ، ومع ذلك فإن عبد الله رأى التمرد على الحاكم فريضة إذا أمر بمعصية ، فكيف بالتمرد على رجل من سوق الناس منح نفسه أو منحه أشياعه سلطاناً موهوماً !

على أن من الإنصاف لتعاليم الإسلام - ونحن بصدده الكلام عن تغيير الحكام - أن نذكر القاعدة القائلة : إذا كان تغيير المنكريؤدى إلى مفسدة أعظم، فالابقاء عليه أولى، وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

والواقع أن الزلازل التي تتبع إسقاط الحكومات قسراً بعيدة المدى . ومن ثم لم يرض الإسلام أن يشهر السيف في وجه حاكم إلا أمام ضرورات ملحة .

أبانها هو ولم يترك بيانها لتقدير أحد .

بل إنه حب إلى المؤمن التضحية ببعض حقوقه الخاصة إشاعة للاستقرار في أنحاء البلاد ، وإغلاقاً لمنافذ الفتنة .

فعن عبادة بن الصامت قال : «بأي عنا رسول الله. صلى الله عليه وسلم. على السمع

والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثره علينا، وألا ننزع الأمر أهله. أى نطلب الحكم من ولاته. إلا أن تروا كفراً بواحراً عندكم من الله فيه برهان.».

وإنى لأمّقت أن أكون داعية لحاكم ما ، وأستعيد بالله من أن أعين بكلمة على بقاء والٍ جائز .

غاية ما أبغى أن أشرح قانون السمع والطاعة وأن أمنع الكهان والدجالين من الاحتيال به على ناشئة قليلة الفقه في الإسلام . إن تغيير حاكم شيء والانصراف عن واعظ غير موفق شيء آخر .

لقد كان الراسخون في العلم يدعون إلى الله ويتجردون للدعوة ، فكان الناس يرون طاعتهم من طاعة الله ؛ لأنهم تلقوا دروس معرفته عنهم .

ثم جاء الراسخون في الجهل يطلبون حقوق القيادة ، ويتحدثون عن قانون السمع والطاعة ، وليست أعنف دعياً من هؤلاء على مزاعمه ومطالبه . فالأمر كما قيل : «بعض الناس طغاة لأننا نركع لهم» .

(٢)

القول بعصمة الأئمة غير معروف بين جمهور المسلمين من أهل السنة . فمذهبهم أن القائد أو الحاكم يجيء من أى طبقة ، وأنه في موضعه العالى من تصريف الأمور يجوز عليه أن يخطئ وأن يصيب .

وأن نصحه - إذا أخطأ كمؤازرته إذا أصاب - واجب على الأمة .

بل إن أهل السنة يرون أن النبي - صلى الله عليه وسلم ، على جلالته - قد يخطئ فيما لم ينزل به وحى . . . ولكن الإرشاد الأعلى يستدرك عليه ويوجه اجتهاده إلى الصواب الذي فاته .

أما الشيعة فهم يحصرون الخلافة في الأسرة النبوية ، ويقولون بتقديس من يتولى منهم شئون المسلمين .

ولست فقيهاً في مذهب الشيعة .. ورأي أن الخلاف في سياسة الحكم - عندنا عشر المسلمين - سياسي لا عقدي ، وأن أركان الإسلام تظلم عندما يقحم عليها هذا الخلاف الذي بدأ تافهاً ثم استفحلاً مذ خالطته شهوات الدنيا !

وأريد أن أعرض هنا المسألة (عصمة أو تقديس القيادة) .. فإن القول بعصمة واحد من هؤلاء هو عندى خرافات كبيرة .

ومن السخف أن يطالب عاقل بتصديق هذا الزعم سواء تبجح به رئيس أو هرف به مرءوس .

وربما كان الضغط الذي صادفه التشيع أول أمره سر انتشار هذه الكلمة ، فقد استبد الأمويون والعباسيون بالحكم دهراً طويلاً ، وضيقوا الخناق على معارضيهم حتى جعلوهم يحيون في جو من الوجل والتوجس .

والأحزاب المناوئة للحاكم عندما تفقد نعمة العلانية في التنفيذ عن رغباتها ، والإبانة عن مقاصدها وغاياتها ، لا ترى بدأً من جمع فلولها في الظلام ونشر تعاليمها في شكل رسائل أو منشورات مقتضبة حاسمة ..

وقد كان طلاب الخلافة من ذرية على يعيشون في هذا الخفاء المسحور ، وينالون من الحب بقدر ما يناله الحاكم من سخط .

وربما كان بعضهم أعف نفساً وأصدق قيلاً من أمراء أمية والعباس ، فهو يرى في مناوشته الحاكم وإسقاطه خدمة للإسلام قبل أن يكون خدمة لنفسه ...

والوسيلة الوحيدة هي المقاومة السرية ؛ حيث يتلقى الأتباع الأوامر الصادرة من فوق

على أنها نصوص واجبة الطاعة ، لا مجال ألبته لمناقشتها أو التملص منها . لا ... إن شيئاً من هذا لا يجول بخاطر واحد من الأتباع! فإن تنفيذ هذه الأوامر دين تقبل عليه النفس بلذة وشغف ، ولو كانت عقباه العطوب .. !

وفي هذه الدائرة المغلقة تتحول الثقة في القيادة إلى قول بعصمة الأئمة ... ذلك أن مرور الزمن على هذا الكبت يحور الصلة بين الأتباع المضطهددين وسادتهم المختفين حتى تنتهي إلى هذا المصير .

وخطورة هذا الضرب من المعارضة المستخفية أنه البيئة الخصبة لنمو الأوهام والأساطير .

وأظن أن الفرق الكثيرة التي نهشت جوهر الإسلام - من باطنية وقراططة وغيرهم - لم تولد إلا في هذه البيئة .

إن الأوامر التي يصدرها أشخاص فقدوا قوة العمل في النور قلما تخضع لتمحيص المنطق وتحقيق الشورى . حتى بعد أن تواتر لهم السلطة ويقيموا حكماً يرعى أمور الناس في وضيع النهار ..

وهكذا ينتقل مبدأ تقديس الزعامة من صفوف المعارضة إلى صفوف الحكم نفسه ، والإسلام بريء من هذا كله .

وقد رأيت جمعاً غفيراً من شباب المسلمين ينظرون إلى قائهم نظرة يجب أن تدرس وأن تحذر .

قال أحدهم : إن القائد لا يخطئ .

ومع أن كلمة «القائد لا يخطئ» وجدت امتعاضاً من السامعين ، إلا أنه امتعاض المذنب عندما يواجهه بجريرة لا يجد منها فكاكاً .. ويكره أن تلتتصق به ؛ لظهور معرتها .

والقوم يخلطون بين توقير القائد وتوفير المهابة له . . وبين الخنوع لرأيه والمسارعة في  
هواء .

لقد قال قائل :

«إن الإيمان بالقائد جزء من الإيمان بالدعوة». ثم أضاف : «ألا ترى أن الله ضم  
الإيمان بالرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الإيمان بذاته - جل شأنه - ؟ ذلك أن  
المظهر العملى للطاعة والأسوة هو في اتباع القائد اتباعاً مطلقاً . . . !!

ثم استدرك القائل : «لا أعني بهذا أن أسوى بين القائد والرسول في حقيقة  
الطاعة ، إنما أقصد دعم مشاعر الولاء نحو القائد ، فأنا أضرب مثلاً فحسب» . . . !!

إن نفراً من العباقرة ظهروا في ألمانيا وإيطاليا ومصر والهند أوتوا من المواهب الخارقة  
ما جرفوا به جماهير العامة واستهواها به الخاصة . وكانت آراؤهم تعصف بما عدتها  
وأشخاصهم تطوى الأصدقاء وتكتسح الخصوم .

وهؤلاء الزعماء الكبار لا تضبط صلاتهم بأتبعهم - على هذا النحو - تعاليم  
الإسلام ، فلا هم عرفوها ولا هم تقيدوا بها . إن الأقدار قد تسلح بعض الناس بقوى  
أشبه بقوى القاطرة التي تجبر وراءها ألف عربة ، وإذا كانت شعوب بأسرها يطريها  
الإعجاب بقائد ما ، فتنشق حناجرها بالهتاف له ، وتملكها عقلية القطيع في السير  
وراءه ، فذاك أمر يصح أن تدرس عللها ونتائجها على ضوء التاريخ القديم والحديث .

أما الشيء الذي تحار البرية فيه فهو إطباق قبيل من الناس على تقدس شخص  
ليس لديه ذرة من الخصائص العبرية .

إن بركات الطاعة العميماء لا آخر لها ، وأولها أنها تصدق في أصحابها قول

السائل :

لَا يَئْلُغُ الْأَعْدَاءَ مِنْ جَاهِلٍ  
مَا يَبْلُغُ الْجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

وَهِينَ كَانَ الْوَعْيُ السِّيَاسِيُّ يَتَطَلَّعُ إِلَى مُزِيدٍ مِّنَ الْحَرَيَاتِ كَانَ بَعْضُ النَّاسِ ضَعَافُ  
الْإِحْسَاسِ بِعَنْيِ الشُّورِيِّ ، وَحَقَّ قِيَامُ الْأَحْزَابِ ، فَلَمْ يَشْعُرُوا بِقِيمَةِ الدِّسَاتِيرِ الضَّابِطَةِ  
إِلَّا بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ .

وَأَسْتَطِعُ أَنْ أَقُولُ : إِنَّ الْحَاجَةَ تَكُونُ مَاسَةً إِلَى تَرْبِيَةِ أَزْكَى وَفَقَهِ أَوْسَعٍ وَتَخْلِيْصِ  
لِلَّدِينِ مِنْ مَسَالِكَ غَبَيَّةَ كَانَتْ تَقْعُدُ بِاسْمِهِ ، وَمِنْ أَمْرَاضِ نَفْسِيَّةٍ تَخْتَفِي وَرَاءَ شَعَائِرِهِ .  
وَلَوْ كَانَ الْمُفْرُوضُ أَنْ يَقُودَ أَهْلَ الْجَهَادِ وَالْعِلْمِ وَالدِّرَايَةِ وَالْتَّوْجِيهِ لَوْجَدَ مِنْ هُؤُلَاءِ  
كَثِيرٌ . . لَكِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الْمُؤَهَّلَاتِ مَعْرُوفُونَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ إِلَيْهِمْ وَيَأْخُذُونَ مِنْهُمْ  
وَيَرْدُونَ عَلَيْهِمْ .

وَالْقَائِدُ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ - وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ شَيْئًا تَشَرِّئُ إِلَيْهِ  
الْأَعْنَاقُ ، وَتَخْشَعُ عَنْهُ النُّفُوسُ . . أَجَلٌ . . يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ صَنْمًا حَيًّا يَأْمُرُ فِي طَيْعَةِ ،  
وَيَأْتِي إِلَيْهِ الْأَشْيَاعُ لِيَتَمْسِحُوا بِهِ وَيَطْفُوْهُ حَوْلَهُ .

وَعَقْدَةُ الْفُسُوْدِ تَجْعَلُ صَاحِبَهَا لَا يَكْتَفِي بِتَخْطِيْفِ مِنْهُمْ أَكْفَأَ مِنْهُ ، بَلْ إِنَّهُ يَسْعُدُ  
بِتَخْطِيْفِهِمْ ، وَيُسْرِ إِذْ يَقْدِرُ عَلَى إِقْصَائِهِمْ وَإِطْفَائِهِمْ .

وَبِنَظَرِنَا إِلَى هَذَا الْخَلْلِ الْفَظِيْعِ فِي مَقَايِيسِ الْخَيْرِ ، سَنَجِدُ أَنَّا سُوفَ نَحْرُمُ مِنْ رِعَايَةِ  
اللَّهِ أَبْدًا بِتَقْرِيرِهِ . . وَخَاصَّةً أَنَّ الشَّبَانَ اضْطَرَبَتْ أَفْكَارُهُمْ وَأَحْكَامُهُمْ حَتَّى خَيْلَ إِلَى  
بعضِهِمْ أَنْ يَزْنِ الْأَمْوَالِ بِمَدِي رِضَاءِ الْقَائِدِ وَمَدِي الْوَلَاءِ لَهُ !!

أَمَا الْخَطَأُ وَالصَّوَابُ ، أَمَا الْعَقْمُ وَالْإِنْتَاجُ ، أَمَا النَّكُوصُ وَالشَّجَاعَةُ ، بَلْ قَلْ : أَمَا الْعِلْمُ  
وَالْجَهَلُ . . فَتَلَكَّ أَمْوَالٌ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا فِي تَقْدِيمٍ وَتَأْخِيرٍ . .

وَعَفَاءُ عَلَى أَمَّةٍ تَسْتَقِرُ فِيهَا تَلَكَّ الْمَهَازِلُ . . إِنَّ الْبَقَاءَ فِيهَا مُضِيْعَةٌ لِلْوَقْتِ وَمُنْقَصَةٌ لِلَّدِينِ !

أَشْقَى بِهِ غَرْسًا؟ وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً؟ إِذَنْ فَاتِبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمًا!!

ولكنى - مرة أخرى - أرجع اللوم على القطيع المسير .

إن حسن النية لا يشفع في الاستجابة لأصحاب الأهواء .

وقد نهى القرآن على قوم أغلقوا عقولهم على رأى فلم يفهموا سواه ولم يفكروا فيما عداه زاعمين أن الخير فيه وحده فقال فيهم : ﴿ قُلْ هَلْ نُبَيِّكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٢) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ .

يجب ألا نأخذ رأينا كقضية مسلمة ، ولا أن نقبل كلام غيرنا دون مناقشة وتدبر ، بل يجب أن نبحث عن الحق ، ونجتهد في الوصول إليه ، فإذا عرفناه عرفنا الرجال على ضوئه وصادقناهم أو خاصمناهم على أساسه .

إن المسلم الصادق هو الذي يعرف الرجال بالحق . أما أولئك الذين يعرفون الحق بالرجال ويشقون في أي كلام يلقى إليهم ؛ لأنه صادر عن فلان أو فلان ، فهم أبعد الناس من فهم الإسلام ، بل هم آخر من يقدم للإسلام خيراً أو يحرز له نصراً . . .

وافقه أيها المسلم كلمة الإمام مالك بن أنس : « كُلُّ امْرَى يُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُرْدَعْلِيهِ إِلَّا صَاحِبُ هَذَا الْمَقَامِ » (يعنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -) .

فقضية الدعوة هي التي تعنينا .

هل ستترك الأيدي الخفية تلعب بزمام الحركة الإسلامية الكبيرة وتشل نشاطها في ميادين الحياة؟

هل من الضروري أن يحمل الإسلام أوزار قيادات واهنة ، تستر ضعفها بالاستبداد ، ونحوها بالمكر السيئ؟ ولحساب من هذا؟

إن شرف الدعوة العظيمة في أنها صدى للإسلام ، وصورة كاملة لتعاليمه الراسدة .

- فاعلم أن الإسلام بنى على الوضوح والثقة والتعقل .
- ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .
- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .
- فارفض الغموض في رسالتك واحذر قبول الريبة باسم السمع والطاعة .  
فالطاعة في المعروف ، والرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول : «دع ما يرribك إلى ما لا يرribك» .
- ولا تتعصب إلا لما تعقل وتومن ، فإن التسليم للأوهام بعض الطقوس الماسونية في هذا العصر ، وبعض طقوس الكنيسة في العصور الوسطى المظلمة .
- أما الإسلام فبرىء من هذه المسالك المحدثة .  
إن القيادات مسئولة - من قبل ومن بعد - عن الخسائر التي أصابت الحركة الإسلامية في هذا العصر ، وعن التهم الشنيعة التي توجه للإسلام من خصومه المتربيين ، فقد صورته على أنه نزوات فرد متحكم ، كما صورت الهيئات الإسلامية وكأنها تسودها الدسائس وتسيرها الأهواء .
- وسوف نقى ندفع عن الإسلام شرور أعدائه السافرين والدخلاء حتى تنجلى الغمة ويفرح المؤمنون بنصر الله .

\*\*\*

نعلم أن الإسلام أول أمره اشتbulk مع اليهود في حرب ضروس ، لم تضع أوزارها حتى انكسرت شوكتهم وكتب عليهم الجلاء ، فاختفت جماعتهم من جزيرة العرب ، وأضمرحت قواهم أمام امتداد الإسلام في المشارق والمغارب .  
لكن اليهود الذين منوا بالهزيمة التامة في ميدان القتال . . وأعجزهم عن أن يصيبوه

بأقل أذى في ساحة مكشوفة واضحة .. انفلتوا يكيدون له في ميدان آخر فاستطاعوا أن يلحقوا به متاعب جمة .. مازال من أربعة عشر قرناً مضت يعالج جراحها إلى اليوم .. !

دسو وسط الجماعة المسلمة من يورث نار الفتنة ويلبس على المسلمين أمر دينهم ودنياهم ، فإذا الفكر الإسلامي تشوّبه الخرافـة ، وإذا الإسرائيـليـات تـمـتـزـجـ بـمـنـابـعـ ثـقـافـتـنـاـ وـتـغـزـوـ عـقـولـ العـوـامـ وـتـعـوـجـ بـسـيرـ الإـسـلـامـ وـسـطـ أـهـلـهـ أـنـفـسـهـمـ !

فكيف يستقيم سيره - بعد - بين الناس ؟

ومعنى ذلك أن اليهود ثأروا لأنفسهم من الهزيمة التي أدركتهم ، وإن كان علماء الدين ونفذـةـ الشـرـيـعـةـ لم يستكـينـواـ الـهـذـاـ الـبـلـاءـ ، وـبـذـلـواـ جـهـودـاـ كـبـيرـةـ فـيـ فـضـحـ هـذـهـ الإـسـرـائـيلـيـاتـ وـتـخـلـيـصـ لـبـابـ الإـسـلـامـ الـحـقـ مـنـ تـلـكـ الـمـحـدـثـاتـ التـىـ اـعـتـرـتـهـ .

وـقـرـيـبـ مـنـ نـصـحـ الـيـهـوـدـيـةـ الـمـاـكـرـةـ عـلـىـ الإـسـلـامـ مـاـ رـوـوـهـ مـنـ أـنـ الـفـرـسـ لـمـ دـخـلـوـاـ الإـسـلـامـ نـقـلـوـاـ إـلـيـهـ تـقـالـيـدـهـمـ فـيـ مـعـاـمـلـةـ الـأـسـرـ الـمـالـكـةـ عـنـدـهـمـ ، فـجـعـلـوـاـ الـأـسـرـةـ الـنـبـوـيـةـ مـوـطـنـ قـدـاسـةـ وـعـصـمـةـ ، وـأـحـبـواـ أـنـ تـبـوـأـ فـيـ مـجـتـمـعـهـمـ الـمـكـانـةـ التـىـ كـانـتـ قـبـلـاـ لـأـلـ سـاسـانـ .. وـبـذـلـكـ تـعـكـرـ رـوـاءـ الإـسـلـامـ فـيـ أـذـهـانـهـمـ كـمـاـ يـتـعـكـرـ كـوـبـ الـمـاءـ إـذـ سـقـطـتـ فـيـهـ قـطـرـةـ مـدـادـ .. !

إن الحقيقة العليا في هذا الدين يجب ألا يشوب صفاءها كدر ، وسواء انتصرت أو انهزمت فلا يجوز أن يتطرق إليها زيادة أو نقصان أو تحريف .

إن اجتياح (الttار) لبلاد الإسلام وطيها لراية الخلافة في بغداد ، وقتلها ما قتلت من السادة والرعاـعـ ، إن ذلك المصـابـ أـهـونـ فـيـ وـقـعـهـ وـأـثـرـهـ مـنـ شـيـوـعـ مـذـهـبـ الـمـرـجـعـةـ بـيـنـ عـوـامـ الـمـسـلـمـيـنـ وـظـنـهـمـ أـنـ الـأـعـمـالـ لـيـسـتـ ضـرـورـةـ لـصـحـةـ الإـيمـانـ .

وعندما أنهض الإسلام جماعة الإخوان في مصر كـيـماـ يـنـصـفـواـ مـبـادـئـهـ وـيـزـوـدـواـ عـنـ

حماه تنضرت وجوه كثيرة ، وسرت حرارة الأمل فى أوصال المؤمنين ، وتمشت إلى جانبها رعدة الخوف فى قلوب الفساق والظالمين ، وسارت الدعوة تطوى المراحل البعيدة وهى تمر من السحاب .

وشرفها الذى تباهى به الأولين والآخرين أنها تتأثر بصاحب الرسالة العظمى - صلوات الله عليه وسلمه - وتقبس من سناه .

ثم جاءت المخنة الكبرى فقتل حسن البنا جهراً لا اغتيالاً ، واقتيد خيرة إخوانه إلى المنافي والسجون ، وظل الإرهاب السلط يجرعهم الغصص ويتوقع منهم الفتنة حتى جاء نصر الله ، فانجابت الغمة وعادوا أحراضاً .

أرأيت؟ كان شرف الدعوة التى قادها المسلمون أنها خطر على الإقطاع الزراعى والافتياض الرأسمالى ، والاستبداد السياسى ؟ لأنها صدى الإسلام الصحيح ، والإسلام الصحيح لا يبقى حيث تسود وتوغل هذه المفاسد الشائنة . غير أن حفنة من الملتحقين بالركب الإسلامى شاءت أن تعكر هذا كله ، وأن تجعل حصاد ربع قرن هشيمًا تذروه الرياح .

مئذنا ينكر أن معرفة الله أساس الدين ؟ وأن صلاح القلب ملاك الأدب ؟ ولكن إذا كنت متدييناً وجاءك الغريم يتقاضاك حقه ، فما معنى أن تلويه عن غرضه بمحاضرة طويلة عن التصوف والزهد ؟ إذا كانت للباطل صورة سمجة ، أفتظن للحق الذى يراد به باطل صورة مستحبة ؟

فى بعض الأقطار التى تدين بالإسلام لاتزال نظم الحكم أسوأ ما عرف العالم ، فالفرعونية الحاكمة والقارونية الكانزة كلتاهمما تنشب مخالبها فى عنق الشعب العانى المهيض .. وفي أيام قريبة ذهب داعية كبير إلى هذه البلاد ، واجتمع الناس حوله يستمعون منه الحكمة وفصل الخطاب .

وأجتمع الجياع الحفاة يسمعون صوت الإسلام من الرجل المرموق (!) فإذا بمحاضرة تستغرق الساعتين عن .. غزوة الحديبية .

وقف الخطيب في المحراب ليتسلق حكام البلد المحرور ويزجي لهم الثناء ويوزع عليهم البسمات .

وفي هذه المحاريب خسر الإسلام معارك ميسورة النجاح ؛ لأن الذي يحارب الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي رجل متكبر طائش يعيش في محراب نفسه !! أما الذين هادنوا الظلم وساروا في ركب الملوك ، وحملت أبدانهم وبطونهم من هدايا القصور السادرة ، فهم أهل المحاريب الظاهرة . . .

وحسبي أن أنسح المسلمين بكلمات موجزة .

إنه لا قيمة لحياة أشخاص أو ماتهم ، ولا لبقاءهم أو ذهابهم إذا ظللتم أنتم أيها المسلمون أوفياء للدين الذي قمتم على دعوته ، واستمدتم وجاهتكم عند الله والناس من العمل به والجهاد له .

ودينكم بإذاء الفرد علم وتربيه ، فاحذروا على أنفسكم الجهال بالإسلام والفساق عن أمر الله ، وأيقنوا بأن الله لا ينزل نصره على متجر بدينه إذا خلا بحرمة الله سطا عليها .

ودينكم بإذاء المجتمع أخوة ، ووحدة . وتلك معانٍ مستغرية في دنيا الإقطاع والاستبداد حيث تظلم الطبقات ودسائس السادة والعيid ، فاحذروا على صفوفكم أذناب العهد البائد . احذروا الرجال الذين أذعنوا للعبودية يوم نشرت ظلامها في الآفاق ، ونكصوا على أعقابهم ضائقين يوم بدت طلائع النور الخافت .. لأنهم خفافيش .. خفافيش للأسف تزعم أنها وحدها صاحبة الحق في الكلام عن الإسلام .

ودينكم بإزاء الدولة عدالة ، سبيلها الحكم بما أنزل الله .

والرجل الذى يأبى الحكم بما أنزل الله فى خاصة نفسه وفي حدود إخوانه الأقربين لا يتصور منه أن يحكم بما أنزل الله بين الناس ، وسيكذبه العالم كله يوم يزعم ذلك . فاحذروا على كيانكم هذا التطاول الذى إذا كره طارد العلماء المجاهدين ، وإذا رضى قرب المذاهنين والقاعددين ، ثم ادعى بعد ذلك أنه يحكم بما أنزل الله .

انسوا الأشخاص واذكروا دعوتكم على ضوء الإسلام وحده .

إن العابثين بحقائق الإسلام الكبرى لهم مطامع لم تنته بعد .

ومرة أخرى أقول لكم : إن الإسلام يحتاج إلى الهمم البعيدة والشاعر الحية النابضة ، فاحذروا الرجال الذين سقطت همتهم وبردت عاطفهم وفرضوا موات أنفسهم على دين قام من نشأته بحب الحقين وبغض المبطلين . فالمتأمل يرى أنه من الواجب قمع الغرور الذى يستولى على أغلب العاملين فى البيئات الدينية ، فيشط بهم بعيداً عن مرضاة الله وعن إقناع العقلاه ..

وانظر إلى ما روى من أن أتباع زعيم دينى فى السودان تهافتو على تقبيل سلم عربة السكة الحديدية التى سافر فيها .

وقال الشعراه فى تحيته :

(أعداء ذاتك عصبة فى النار) !!

إن صلف الرؤساء وهوس العوام على هذا النحو جاهلية عمياه ، وليس إسلاماً قط .

إن كلمة (اغمض عينيك واتبعنى) لا ي肯 أبداً أن يقرها دين يؤمن رسوله بهذا البيان الواضح : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

فلنخدم الإسلام بقوّة ، ولنخدمه بنظام .

أما إشباع نزوات الاستعلاء في هذا ، وكبوّات الاستخداة في ذاك ، بالذكر هنا ، وبالهوان هناك ، فأبعد ساحة عنه ، ساحة يهتف فيها باسم الله ويفرض فيها العمل للإسلام .

\*\*\*

في أعقاب الفتنة المشئومة التي تناول من كيان الأمة ، مر الإسلام بمحنة قاسية وعوّت تيارات الغزو الثقافي ترید أن تعصف ببقايا الإيمان ، وأن تفض كل مجتمعه ، شرعت أنافع عن بقايا نهضة كان الأمل فيها متألق السنّا ولكنها عن غزو أو قصور تعرضت لما تعرضت له .

ونظرت فإذا وجه الحياة دميم ، وسلامح المجتمع منكرة ، وأزمة الإيمان طاحنة ، وتذكرت قول أم المؤمنين عائشة :

**ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتُ فِي خَلْفِ كِجْلِدِ الْأَجْرَبِ**  
قلت : إنني ما أحسن الحياة إلا بديني ولديني ، فماذا أصنع بإقرار هذه الوحشة السائدة والفتنة العميماء !

وتذكرت عويف بن معاوية الفزارى وكان قد زوج أخته من عيينة بن أسماء الفزارى صديقه الحميم ، إلا أن عيينة - لغير ما سبب معروف - طلقها . فغضب عويف ، وقال : الحرة لا تطلق لغير ما بأس !! وعاش بعد مراغمًا لعيينة .

ومضت الأيام وأمر الحجاج باعتقال عيينة وحبسه ووضع القيود في يده . فلما بلغ الخبر عويفًا هاجت في نفسه ذكريات الود القديم وقال :

**ذَهَبَ الرُّقَادُ فَمَا يُحَسُّ رُقَادُ مَا شَجَاكَ ، وَنَامَتِ الْعُوَادُ**

خَبَرُ أَتَانِي مِنْ عَيْنِيَةَ مُوجِعٌ  
كَادَتْ عَلَيْهِ تَصَدَّعُ الْأَكْبَادُ  
مَوْتَىٰ ، وَفِينَا الرُّوحُ وَالْأَجْسَادُ  
بَلَغَ النَّفُوذَ بِلَوْهِ فَكَانَا

\*\*\*

لَا أَتَانِي عَنْ عَيْنِيَةَ أَنَّهُ أَمْسَىٰ عَلَيْهِ تَظَاهَرُ الْأَقْيَادُ !  
نَحَلَتْ لَهُ نَفْسِي النَّصِيحَةَ إِنَّهُ  
عِنْدَ الشَّدَادِ تَذَهَّبُ الْأَحْقَادُ

\*\*\*

وَذَكَرْتُ : أَيُّ فَتَّىٰ يَسْدُدُ مَكَانَهُ  
بِالرُّفْدِ حِينَ تَقَاصِرُ الْأَرْفَادُ ؟  
أَمْ مِنْ يُهِينُ لَنَا كَرَائِمَ مَالَهُ  
وَلَنَا - إِذَا عُذْنَا إِلَيْهِ - مَعَادُ ؟  
ووَقَتَتْ عِنْدَ بَيْتِ فِي هَذِهِ الْقُصِيدَةِ أَرْدَدَهُ كَثِيرًا ، وَأَظَنَّ أَنَّ الْرَّاوِي حَذْفَ مِنْ قَبْلِهِ  
وَمِنْ بَعْدِهِ أُبَيَاً تَتَصَلُّ بِمَوْضِعِهِ .

فِي هَذَا الْبَيْتِ يَقُولُ الشَّاعِرُ :

يَرْجُونَ عَثْرَةَ جَدَنَا وَلَوْ أَنَّهُمْ لَا يَتَقْرَبُونَ بِنَا الْمَكَارِهَ بَادُوا  
وَهُوَ يَعْنِي خَصُومَهُ ، وَخَصُومَ صَهْرِهِ الْمُعْتَقِلُ الَّذِي تَظَاهَرَتْ عَلَيْهِ الْقِيُودُ .  
يَقُولُ : إِنَّهُمْ يَتَرَبَّصُونَ بِنَا الدَّوَائِرَ ، وَنَحْنُ الَّذِينَ نَدْفَعُ عَنْهُمُ السَّوْءَ ، وَلَوْلَا بَطْوَلَتْنَا<sup>1</sup>  
لَبَادُوا . . .

وَالْوَاقِعُ أَنَّ الْأَمْ قَدِيمًا وَحَدِيثًا تَعْتَمِدُ عَلَى أَصْحَابِ الْعَقَائِدِ فِي رَدِ الْحَوَادِثِ السَّنُودَ ،  
فَإِعْلَانُ حَرْبِ الْأَسْتَئْصَالِ عَلَيْهِمْ لَوْنُ مِنَ الْإِنْتَهَارِ .  
وَالْأَخْطَاءُ لَا تَحَارِبُ بِالْخَطَايَا .

وَلَعْنَ اللَّهِ مَنْ يَبْنِي مَجْدَهُ عَلَى أَشْلَاءِ الْعِبَادِ !!

ومن حقى أن أغضب ، ففى الفكر الدينى المتأخر آفة تزرى به ، ويجب أن يبرأ منها على عجل ، وإلا تعرض لغضب الناس ورب الناس .

إنه لا حرج أبداً من اختلاف وجهات النظر ، لكن لا يجوز لصاحب رأى ما أن يحسب نفسه المتحدث الرسمى باسم الله ورسوله ، وأن من عداه خارجون على الإسلام بعيدون عن الحق .

إن مدرسة جمال الدين الأفغاني - محمد عبده - رشيد رضا من أجل المدارس الفكرية فى تاريخ الإسلام ! وهناك جهود مسحورة بين السلفيين (!) لتلويث سمعتهم واتهام عقائدهم وجعلهم جوايس على الإسلام . فهل هذه سلفية؟ وهل يلام من يعرى أصحابها ؟

من حقى أن أقسوا على جهله يتطاولون على غيرهم يبغون الإجهاز عليه! ماذا يبقى للإسلام من ضياع رجاله ، أو تحريضهم والحط من شأنهم ؟

والمدهش أن هذا الداء لا يزال باقياً ، فترى غلاماً يتحمس لحكم فرعى فى فقه العبادات يريد تكفير أبي حنيفة لأنه يخالفه! والإسلام لا يقوم بهذه الفوضى ، والذى أرجوه ألا تتكرر مأساة الغلو والتطرف بين العاملين للإسلام ، فيفقد بعضهم بعضاً ، ثم يفقدون الإسلام جمياً ، ويخلو الجو لأعداء الله .

## كتابات خدام السلاطين

من سنين قرأت أن الشعب الفرنسي في انتخاب حر قال «الجنرال دي جول»: لا أريدك .. فجمع الجنرال أوراق مكتبه ومضى في هدوء إلى بيته .. والجنرال دي جول هو محرر فرنسا من الاحتلال الألماني ..

قلت: لو كان الجنرال عربياً في بلد عربي لقال للشعب: أنا أتحدى؟ إنك أحق من أن تكون شعيراً لي ..

إنني سأبقى لأؤدبك حتى تتعلم احترام العظمة ..!  
قال لي صديق: أنت مخطئ، إنه لو كان في بلد عربي ما أجري هذه الانتخابات أبداً .. ولو أجرتها لهياً كل شيء قبل خوضها ليخرج بالأغلبية الساحقة ..  
قلت: يظهر أن رأيك هو الأصوب ..!

وتدبرت الأوضاع السياسية في الأمة الإسلامية ثم شعرت بغصة؛ لأن الدين القائم في ظل هذه الأوضاع مطلوب منه أن يحسن القبيح ويقبح الحسن، وفي الدنيا منافقون لا تخصيصهم عدداً يربون بأداء هذه الوظيفة .. أهذا إسلام وأولئك حكام؟  
لقد كانت أرضنا - قدماً - تصدر الحق والشرف والصدق والأمانة، فماذا تصدر الآن في سياسة الحكم والمال؟

والغريب أن ناساً يتخذون ما كتب في عصور الاضمحلال نبراساً، ويظنونه دين الله، وبذلك يضللون الأجيال الراغبة في فهم دينها ..

والكتابة في السياسة الإسلامية لا تقبل إلا من المصادر المعصومة ولا تقبل من خدام السلاطين ومداهنيهم، ومؤلفات هؤلاء منتشرة في الأسواق مع الأسف ..

قال لي طالب جامعي: إنهقرأ - في تسويع خروج الحاكم على الشورى - موقف أبي بكر في حرب الردة، وكيف مرضى على رأيه رافضاً رأي عمر بن الخطاب وجمهور الصحابة! وكان الخير فيما فعل ..

قلت له : في هذا الكلام جملة أخطاء فاحشة ، أولها أن مقاتلة المرتدين ومانعى الزكاة وأدعية النبوة ليست رأياً اقترحه أبو بكر ، أو اجتهاداً خاصاً به ! إنه النص الذي ورد في الكتاب والسنة ، فأبو بكر ينفذ ما ثبت ، ولا اجتهاد مع النص ولا شورى كذلك مع النص ..

ولو كان أبو بكر حاكماً مدنياً ما وسعه إلا إطفاء الفتنة المسلحة بالسلاح ، فكيف وهو يعرف الأحاديث التي توجب قتال المرتدين حتى الموت ، والقضاء على أضرابهم من الهمج ؟ ثم من قال : إن الصحابة كانوا ضد هذا الموقف ؟ ذاك كذب محض ؟

صحيح أن عمر ثارت في نفسه شبهة ما كادت تولد حتى ماتت ، فما تحولت إلى رأى معارض أو موقف منافق ، إنها تشبه الذي عرض له عندما أنكر وفاة الرسول بادي الرأى ، ثم ثاب إلى الحق بعد كلام أبي بكر ، وكان أول من جند نفسه للعمل معه في ميادين الكفاح التي مهدتها .

والذين يسوقون هذه القصة ليضرب الحكم الفردي عرض الحائط برأى الجماعة ، يفعلون شيئاً :

الأول : الزعم بأن رؤساء المسلمين وملوكهم على مر الزمان هم في مستوى أبي بكر ، بل في مستوى النبي نفسه ، ولهم ما لهم من حقوق .

الثاني : أن الخليفة الأول رفض الشورى ! وأن الرسول كذلك لم يلتزم بها في الحديثة ! فلأصحاب الفخامة أن يفعلوا ذلك ..

وعلى أساس هذا الفقه المغشوش تذهب الشورى في مهب الريح ولا يولد لها جهاز صحيح . وقد رأينا أن رفض الشورى في سيرة النبي ﷺ وخلفيته الأول اختلاق لا أساس له ..

ولو فرضنا كذباً أن ذلك حدث فمن الذي يعطي ولاة السوء ، وعباد المناصب حقوق النبيين والصديقين ؟

وقال لي طلب آخر : إن الأستاذ المودودي يختلف معك في هذا التصوير للشوري الإسلامية !  
قلت : رحم الله المودودي وأجزل مثوبته ، ما أظنني اختلفت معه في شيء طائل ، ولكن الملابسات التي أحاطت بالرجل جعلت أحكم ما تفهم إلا في ضوء هذه الملابسات .

لقد أيد ترشيح اخت محمد على جناح لتحكم الباكستان ، وفي ذلك ما فيه .  
وعندى أنه أفضل أن تحكم الباكستان امرأة من نوع «أندира غاندي» عن أن تحكمها عساكر من طراز «يجيسي خان» الذي ما كان يفتق من سكر ..

إن المرأة التي رأست الهند استغلت خيبة الحكام العسكريين للباكستان واستطاعت أن تلتحق هزيمة فاحشة «بالفيلد مارشال يحيى» قصمت ظهر الدولة الإسلامية الكبيرة وشطرتها نصفين ..

وقد فعلت «جولدا مائير» بالعرب ما فعلت زميلتها الهندية ..  
ولو أن امرأة حكمت العرب من هذا الطراز لكان ذلك أحدي على العرب من عسكرو وضعوا على صدورهم أعلى الأوسمة ، فلما جد الجدل تحول عمالقة الاستعراض إلى معزوضان ..  
إن امرأة على رأس حكم شوري أفضل من مستبد على رأس سلطة مغتصبة .  
وبديهي أن ذلك ليس هو النظام الأمثل ..

والذى أذكره - من قراءة مر عليها ربع قرن - أن المودودي يرفض أن تتعارض الشوري حق السلطة التنفيذية في اختيار الوسائل والأدوات ..

وهذا مقرر في الأنظمة الحديثة حيث لا تتعارض السلطة التشريعية لأعمال اختها التنفيذية ..  
أما القول بأن الإسلام أقر الشوري في الحكم ، وأعفى المحاكم من نتائجها ، وأن البناء السياسي للأمة الإسلامية يقوم على هذا الأساس فذاك كلام باطل ، وهو قد يقع على ألسنة لم تحسن دراسة الإسلام ولا تدبر تاريخه ، ولا سير القافلة البشرية في الشرق والغرب ، ولا وظيفة الأمة الإسلامية في العالم .

والويل لل المسلمين إذا وقعت أزمتهم في هذه الأيدي القاصرة .

وعلى الشباب المسلم إذا شاء أن يحترم دينه ، أن يحسن فقهه ، وألا تستفزه حماسة جوفاء وفتاوى جاهلة ..

ولابد من تحديد مواطن الشورى ، فربما ذهب البعض إلى أنها تدخل في كل شيء! إن الشورى لا علاقة لها بالعقائد والعبادات والحلال والحرام ، فهي لاتنشئ طاعة ولا تحل حراماً ، إنها كالاجتهاد لامكان لها مع النص .

ومع أن ذلك معلوم لدارسى أصول الفقه ، فإن من هواة الكلام في الإسلام جماعة رفضت أن تكون الأمة مصدر السلطة ! لماذا ؟ لأن الحاكمة لله لا للشعب .

وظاهر أن ذلك لعب بالألفاظ ، أو جهل بمعنى التشريع ، أو خدمة للاستبداد السياسي .

ولو راجعنا حصيلة المناقشات التي دارت في مؤسسات الشورى ، بالعالم كله لوجدناها تتصل بالشئون المدنية ، وربط الموازنة العامة ، وإحکام هيمنة الأمة على شئون الحرب والسلام ..

وقد وقع شيء يتصل بالحرام والحلال في الولايات المتحدة وإنجلترا ، فمن نصف قرن تقربياً حرم مثلو الأمة تناول الخمور والاتجار فيها ، ثم وقعت في أثناء التطبيق اضطرابات وهزات جعلت الحكومة تلغى التحريم بعد عدة سنين من الحظر .

أما في إنجلترا فإن مجلسى العموم واللوردات تحت تأثيرات قدرة لم يريا مانعاً من إباحة صور من اللواطة .

ولم تتيسر لى دراسة دقيقة لوقف الكنيسة من هذا وذاك ، والظاهر أنها وافقت على اقتراف هذه الآثام ..

ونحن المسلمين نعرف أن الحكم الشرعى هو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين ، وأن الناس لا يملكون تخللاً ولا تحريمًا : ﴿ وَلَا تَقُولُوا مَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبُ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ .

وعندما نتحدث عن الشورى فإنما نعني جميع الشئون الدنيوية والحضارية العادلة .  
ثم جميع الوسائل التي تتم بها الواجبات الدينية ، والأهداف الشرعية ..  
وعندما ترى الأمة أنه لا تفرض ضريبة إلا بإذنها ولا ينفق قرش إلا بإشرافها ، ولا  
تقر مصلحة مرسلة إلا برضاهما ولا تعلن حرب إلا بموافقتها . إلخ فذلك حقها بداعه .  
إن ترك ذلك لتقدير فرد عبقرى أو يدعى العبقرية - وأكثر الحكماء من أولئك  
الأدعية - هو ضرب من الانتحار !

وفي ربع القرن الأخير خاضت مصر حرباً مع اليمن أفلست فيها خزانتها ، وتعطلت  
مرافقها ، ولا تزال دائحة من مغارتها إلى اليوم ذلك فوق عشرات الألوف من القتلى  
والصابين .. وقد فعل ذلك حاكم زعم لنفسه أو زعم له المنافقون حوله أنه فلتة الدهر  
بعد مينا وعمرو !

أفلو كانت هناك مؤسسة محترمة للشورى كان يقع هذا الخراب ؟ ..  
ثم إنني أسائل : لمصلحة من يصور الحكم في الإسلام على أنه رجل ذو سلطات  
خيالية ، الخضوع لها إيمان والانحراف عنها خسران ؟ !

قال عمر بن الخطاب لرجل قتل أخيه في إحدى الحروب : والله لا أحبك ! فقال  
الرجل : يا أمير المؤمنين ، أيمينعني ذلك حقاً ؟

قال عمر : لا ... . فقال الرجل : لا شيء إذن ، إنما يأسى على الحب النساء .. !!  
ولست من يرتضون سيرة هذا الأعرابي الجلف .. ولكنني أحببت أن أومئ إلى أن  
الحكم الديني ليس كهانة وزلفى ..

ويينبغى أن نفرق بين الولاء للدولة والولاء لشخص الحكم .. إن الولاء للدولة حق ،  
والانحراف عنها مزلقة إلى الخيانة العظمى ، وقد رأينا في تاريخنا صحابة وتابعين  
يخدمون الدولة الإسلامية في ظل الإدارة الأموية - بتعبير عصرنا - وهم يكرهون نوع  
الحكم وسلوك رجاله ..

\*\*\*

## الانتخابات بدعة!!!!

كثيراً ما رمقت المعارك الداخلية في تاريخنا الإسلامي ثم حدثت نفسى : ماذا لو أن النزاع بين على ومعاوية بت فيه استفتاء شعبي ، بدلاً من إراقة الدم ..

ولو سلمنا بأن الأسرة الأموية تمثل حزبًا سياسياً له مبادئ معينة ، فماذا عليها لو تركت آل البيت يكونون حزبًا آخر يصل إلى الحكم بانتخاب صحيح أو يحرم منه بانتخاب صحيح؟

قال لى متعلم كبير : إن الانتخاب بدعة !

قلت له : وسفك الدم واستباحة الحرمة هو السنة ؟

قال : إن الغوغاء لا رأى لهم .. قلت : ألم يكن هؤلاء الغوغاء هم سواد الجيوش المقاتلة مع هذا وذاك؟ قبلناهم مقاتلين ولم نقبلهم ناخبين ؟!

إنى - باسم الإسلام - أرفض الأخطاء التي وقع فيها حكامه القدامى والمحدثون ..  
ليس لأحد من أولئك جميعاً حصانة تجعله فوق النقد ..

الذى أعلمته من دينى أن محمداً - عليه الصلاة والسلام - رحمة للعالمين ، وبركة نامية للمستقدمين والمستأخرین ، وأن الأمويين والعباسيين والعثمانيين يقتربون منه أو يبتعدون بقدر وفائهم لله أو غدرهم بوحيه الخالد .

وتقاليد الحكم خلال هذه العصور هي كأى موروثات أخرى ينظر إليها على ضوء الإسلام ولا ينظر للإسلام على ضوئها .

ومرة أخرى أؤكد أن أوضاعنا السياسية تؤخذ من المصادر المقصومة لا غير .

ونظام الانتخاب كنظام الامتحان أجدر المقياس بالإثارة والإبقاء وإن كان كلامها يحيف .

وقد سمعت كثيرين يزرون على رأى العامة ، ونظرت إلى ما يطلبون من عوض فلم أر شيئاً .

إنى أحتقر الجاهم الذى يقال له : تعلم ! فيقول : أخشى الترف العقلى ، وأحتقر البائس الذى يقال له : أقبل على المال ! فيقول : أخشى طغيان الغنى .

وأحتقر متحدثين عن الإسلام يستكينون فى ظل أحقر استبداد ، فإذا حدثهم عن

عمود الشورى فى الإسلام قالوا : ذلك رأى الرعاع !! والأمر لأهل الحل والعقد لا للرعاع ..  
وكيف يوجد هؤلاء المأمولون المنشودون المسلمون أهل الحل والعقد؟ إن كان اختيارهم  
للحاكم فالأمر كما قال أبو الطيب :

فيك الخصم وأنت الخصم والحكم ..

وإن كان بجمهور الأمة ، فلابد من الانتخابات ..

وسوف يفهم من كلامي أنى أحبذ الأسلوب الغربى فى الحكم ، وربما كان هذا  
بعض ما أرى ، أما رأى كله فإنه قبل الاقتباس من أي نظام عالمى للوسائل التى تحقق  
قيمنا الفريدة - يجب إحداث تغييرات جذرية فى الطريقة التى نحيا بها ..

لقد كنا فيما مضى طليعة هادية .. ثم أطفأنا نحن ما بآيدينا من مصابيح .. ثم  
شاركتنا الهمج حياتهم .. ثم تقدموا هم وبقينا فى السفوح .. ثم بدأنا نشعر بأوضاع  
الهزيمة وأشواق الرفعة ، وبعد سبات عميق شرعت قافلة الإسلام تتحرك .

بيد أن العالم الإسلامي الطويل العريض لا يزال يوج بجماهير وحكومات لما تبلغ  
سن الرشد .. والعمل الأول هو كيف ينضج ذلك الركام الكثيف من الخلائق ..؟

والأمر لا يحتاج إلى فلسفة عميقة .. فلنشرح ما نريد ونحن نستقبل القرن الجديد ..

نظرت إلى القلم الذى أكتب به فوجدته أمريكى الصناعة ..

وإلى ساعة يدى فوجدتها سويسرية ..

وإلى المنظار الذى يعيننى على الإبصار فوجدته من ألمانيا ..

وإلى الحذاء الذى أسير فيه فوجدته إيطالى الصنع ..

ثم إلى الثوب الذى أرتديه فوجدت المصدر من الصين الوطنية ولكن الحياكة عربية ..

أما الملابس الداخلية فهى من مصر ، ثم تذكرت أن الآلات التى نسجتها من أوروبا ..

وأخيراً نظرت إلى السيارة التى تقلنى إلى عملى فكانت من اليابان .. !!

ماذا صنعنا نحن ؟ لاشيء ! العالم كله منتج ونحن مستهلكون؟ ذاك شيء يحزى ..

وقلت : إنهم متقدمون فى مجال الصناعة - أعنى غيرنا - ولنا مجال آخر .

ووَقَعَتْ عَيْنِي عَلَى صَحِيفَةٍ مَّحلِيَّةٍ بَهَا إِعْلَانَاتٍ شَتَّىٌ ، هَذَا عَنِ الدَّجَاجِ الْفَرْنَسِيِّ ،  
وَذَاكُ عَنِ التَّفَاحِ الْفَرْنَسِيِّ ، وَهَذَا عَنِ الْكَعَكِ الْفَرْنَسِيِّ ..

وَأَنَا أَعْرُفُ أَنْ طَائِرَاتَ «الْمِيرَاج» الْفَرْنَسِيَّةِ سَلاَحٌ مَّحْذُورٌ ، وَأَنْ مَهَارَةَ الْفَرْنَسِيِّينَ فِي  
الْآلاتِ الْكَهْرَبِيَّةِ وَالْإِلْكْتَرُونِيَّةِ شَيْءٌ يَتَحَدَّثُ بِهِ الْخَبَرَاءُ ..

إِنْ تَقْدِمْ «غَيْرُنَا» مَلْحُوظٌ فِي كُلِّ مَجَالٍ ! فَمَاذَا نَصْنَعُ نَحْنُ ؟

وَصَدَمْنِي الْجَوَابُ الْمَرُّ ، إِنْ شَعُوبَنَا تَعَانِي التَّخَلُّفَ الَّذِي يَعْانِيهِ طَفَلٌ يَسِيرُ وَرَاءَ أَبِيهِ ،  
أَوْ تَلَمِيذٌ وَرَاءَ أَسْتَاذِهِ !!

إِنَّا شَعُوبٌ لَمَا تَبْلُغَ سَنَ الرِّشْدَ ، سَنَ الْإِنْتَاجِ وَالْإِسْتَقْلَالِ وَالْإِسْتَغْنَاءِ ..

لَمَّاذا ؟ لَأَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهُجٌ عَمَلٌ إِسْلَامِيٌّ ، بَلْ لَيْسَ لَهُمْ وَلَاءُ عَارِمٍ  
لِلْإِسْلَامِ وَتَشْبِثُ ظَاهِرٌ بِعَقَائِدِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَمُثْلِهِ وَشَرَائِعِهِ ..

وَمَنْ لَيْسَ لَهُ مِنْ ذَاتِهِ مَا يَحْرِكُهُ وَيَوْجِهُهُ لَا يَسْتَغْرِبُ مِنْهُ أَنْ يَنْجُرُ وَرَاءَ الْآخَرِينَ ..  
وَقَدْ لَاحَتْ فَرْصَةٌ لِيَقْظَةٍ أَسَاسِهَا الْإِسْلَامُ لَمَا أَقْبَلَ الْيَهُودُ بِاسْمِ التُّورَاةِ يَمْحُونُ الْوِجُودَ  
الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ فِي فَلَسْطِينِ ..

وَلَكِنَّ الْزُّعَمَاءِ الْعَرَبِ اسْتَمَاتُوا فِي جَعْلِ قَضِيَّةِ فَلَسْطِينِ جَنْسِيَّةً لَا إِسْلَامِيَّةً ، وَبَلَغُوا هَدْفَهُمْ .  
وَالْقَضِيَّةُ الْآنُ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِ الْيَهُودِ دِينِيَّةً تُورَاتِيَّةً أَمَا مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِ الْعَرَبِ فَهُنَّ ..  
تَوْفِيرُ الْخَبَزِ وَالسَّلَامِ وَالْحُرْيَةِ لِجَمَاعَاتِ مِنِ الْمَطْرُودِينَ الْلَّاجِئِينَ .

وَإِذَا ذُكِرَ أَحَدُ الْإِسْلَامِ كَمْ فَمَهُ وَغَلَّتْ يَدُهُ وَسُمِيَّ رَجْعِيًّا .

أَمَا إِسْرَائِيلُ فَهُمْ تَقْدِمِيُّونَ ! شَرْفَاءُ !

هَلْ اتَّضَحَ مَعْنَى مَا قَرَرْتُهُ مِنْ أَنَّ الشَّعُوبَ وَالْحُكُومَاتَ الْعَرَبِيَّةَ لَمَا تَبْلُغَ سَنَ الرِّشْدَ ؟ إِنَّهَا  
فِي وَصَايَّةِ غَيْرِهَا مَادِيًّا وَأَدِبِيًّا ، إِنَّهَا عَالَةٌ عَلَى غَيْرِهَا فِي طَعَامِهَا وَسَلَاحِهَا جَمِيعًا ..  
وَقَدْ هَبَطَتْ إِلَى ذَلِكَ الدُّرُكَ لِخَوَائِهَا الرُّوْحِيِّ وَالْفَكْرِيِّ ..

وَمَسْؤُلِيَّةُ ذَلِكَ التَّخْرِيبِ تَقْعُدُ عَلَى عَوَاتِقِ نَفْرِ مِنِ الْفَقَهَاءِ وَالدُّعَاءِ وَالرُّؤُسَاءِ وَالسَّاسَةِ ..  
وَإِذَا كَنَا فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ مُسْتَصْبِحِينَ عَوَامِلَ الْهَبُوطِ فَلَنْ تَزَدَّادَ أَمْوَالُنَا إِلَّا خَبَالًاً .  
يَجِبُ أَنْ نَرَاجِعَ أَنفُسَنَا عَلَى عَجْلٍ كَمَا نَصْمَنُ الْحَيَاةَ لِدِينِنَا وَلَا نَفْسَنَا ..

## حول تطبيق الشريعة

إن خدمة الإسلام في هذا العصر عمل صعب معقد يحتاج إلى تجربة شاملة وفقه رحب ..  
فأمام ركام من الموراث الثقافية والاجتماعية لابد من جراحات جريئة لبتر البدع والأوهام  
والمراسيم التي تغلغلت في حياتنا الخاصة وال العامة وأفسدت نظرتنا للدين والدنيا ..  
وأمام ركام من التقاليد التي رمتنا بها الحضارة الغالبة لابد من بصر دقيق بما ينفع  
وما يضر! دون تشاءم قابض أو ترحيب غافل ..

إنني أحياناً كنت أغلغل البصر في النظام الشيوعي نفسه لأتعرف الجوانب التي  
تجتذب الجماهير ، والتي قد تكون بها أثارة من حق ، فقد تكون مأخوذة من تراثي أنا ،  
فإنني أذكر من سيرة «كارل ماركس» أنه قرأ كتاب الخراج «لأبي يوسف» .  
ويوم أخذ هذا الجانب فهى بضاعتنا ردت إلينا .

ثم إنني محتاج إلى الاستفادة من نشاط العقل البشري في كل قارة وفي كل  
حضارة إذا كان هذا النشاط يدعم قيمًا مقررة عندي ..

وأخيرًا أجدرني مضطراً لذكر أمر مثير سوف يصطدم به خدام الإسلام الصادقون ! هو  
الحقد المتنقل على مر القرون ضد محمد ﷺ ورسالته الخاتمة ..

إن الصهيونيين والصلبيين والملحدين والعلمانيين من وراء المجازر الرهيبة التي  
تعرض لها الدعاة وجمهور المؤمنين في أرجاء العالم الإسلامي الكبير .

وقد استبنت أن مصطفى كمال أتاتورك وجمال عبدالناصر كانوا مخلبـيـ قـطـًـ في  
مؤامرات محبوكة للإجهاز على الإسلام وبنـيهـ ، وقد تكرر المؤامرة وتتعدد المأسـىـ ،  
وعلى المسلمين أن يصمدوا فإما الشهادة وإما النصر ..

على أن حركات الجماعات العاملة لـ الإسلام هي السبب الأهم وراء انتصاراته  
وهزائمه ، ولنقف وقفة متذكرة عند هذه القضية .

إن الإسلام عقيدة وشريعة ما يشك في ذلك عاقل ، وطالعه إلى أخذ مقاليد الحكم  
اتجاه طبيعـيـ لتحقيق أهدـافـهـ .

بيد أن الترتيب المستفاد من تعاليم الإسلام أن تكوين الدولة يتم بعد تكوين الفرد ، وأن وضع النظام يجيء بعد إنصاج الإيمان ، وقد تنزلت آيات الأحكام بعد مهاد عريض من اليقين والإخلاص وإرادة الآخرة ..

إن التطلع إلى الحكم كما يكون لإعلاء كلمة الله قد يكون لرغبات خاصة كامنة أو مكشوفة .. !!

والحكم الإسلامي قبل أن يكون لمعان أسماء أو تسنم مجد هو تفان في الله ورغبة فيما عنده ..  
وإلا فالأمر كما قال الله : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَتْهَا نُوَافِرُ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسِنُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَجِبَطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

وقد كنت أعظ نفسي وإخوانى بهذه الحقائق من ديننا ، وأقول : إنه قبل أن يكون المرء صاحب منصب رسمي يستطيع أن يؤدى للإسلام أجل الخدمات فى الميدان الثقافى والاجتماعى ..

والذين يسوفون فى البلوغ بأمتهم سن الرشد - حتى يتسلمو أزمَّةَ الحكم - لن يفعلوا شيئاً طائلاً حين يحكمون .

وقلت - لنفسى وإخوانى - إن الحكم فى الشرق العربى والإسلامى يعلومن المناصب حياتهم .. فالرئيس أو الوزير فى أوروبا مثلاً قد يترك وظيفته ويسير آمناً فى أية مدينة أو قرية .. أما فى شرقنا العليل فإن عدداً من الزعماء إذا ترك الحكم تابعته ترات قد تودى به ، وتحترم أجله ، ومن ثم فإن حرصه على الحكم لون من دفاعه عن حياته ..

ورؤساء كثيرون يشعرون بالخطر على أشخاصهم إذا أحسوا أن الدعاة المسلمين ينشدون الحكم أول ما ينشدون ..

ومن أجل ذلك فهم يشمون رائحة الموت من وراء المطالبة بالحكم الإسلامي .  
ونحن المسلمين لسنا قتلة ، ولا تحركنا عداوات خاصة ، ولا نطلب الحكم لنحيا ويفنى غيرنا ..

ويسراً أن نكون في الصف الثاني إذا احتل الصف الأول من يحقق مراد الله ..  
وفي الصف الثاني مجالات هائلة لمن يريد أن يسدي للإسلام يدًا ، وإذا كان حجم  
ما يتم في هذا الصف قليلاً ، فلا ضير علينا ولا يكلف الله نفسه إلا وسعها ..  
من أجل ذلك أطلب بإلحاح أن تشغل الجماعات الإسلامية بترقية شئون الأمة في  
نطاق ما تقدر ، ويجب أن تعلن باستمرار أن الإسلام دين ودولة ، ولكن هذا الإعلان  
لا يجوز أن يكون عملها الشاغل ..

إن الأمراض النفسية بالغة الخفاء شديدة الخطر ، وتحقق لى ذلك - في صفووف المتدينين -  
كنت أقرب الحرب بين المجاهدين الأفغانيين والزحف الشيوعي المحتاج للبلاد .. !!  
كانت هناك ست جبهات أو ست طوائف تقاوم غارة أولئك الكفار المجرمين ، وقد  
حاول أولو الألباب جعلها جبهة واحدة وبذلوا جهوداً موصولة لإزالة الفرقة ، وكان  
نجاهم جزئياً ولا تزال المحاولات تبذل .. !!  
إن قلب الإسلام مهدد بالتوقف في أفغانستان ، والموت يأتي من كل جانب ومع  
ذلك فالرؤساء الكبار حراص على مناصبهم أو على زعامتهم .. !!  
إن في ذلك مؤشراً إلى مهاب الهلاك ، ومصادر العطب ..

وإذا كان نصر الله ينزل في هذه الميادين القصية فمن أجل الجنود المجهولين وذوى  
الكفايات الذين لا يعرفون إذا حضروا ولا يسأل عنهم إذا غابوا .. !

لقد استيقنت من تجاري أن قلة الفقه سوء كبير! لكن غش النية سوء أكبر ..  
هناك مسلم «سلفى» يموت ولا يضع يده في يد مسلم «صوفى» ، هل هذا يصلاح  
للدفاع عن الأمة أو السير بتعاليم الإسلام في الميدان الدولى؟!  
وهناك مسلم يرى أن العمامة لباس الإسلام الرسمي ، ويجب أن يكون لها ذنب ،  
ويرفض الصلاة وراء من لا يرتدى هذا الزي ، أذل ذلك أمرؤ يصلح للدفاع عن الإسلام  
أو السير به في الميدان الدولى؟!

إن أمتنا مصابة من السادية الفكرية والخلقية بعلل شتى ، وكل جماعة تؤخر علاج

هذه العلل ، وتجعله فى المرتبة التالية ، فهى هازلة فى جهادها ، متهمة فى قصدها ..  
وقد أشرت إلى الخلل الهائل ، الموروث أو الطارئ ، فى كياننا الدينى ، وبقى أن  
ننكافف ضده ..

ونعود إلى ما بدأنا به ..

إذا كان هناك أقوام اختصموا فى ربهم فنحن المسلمين طرف فى هذه الخصومات  
الباقية إلى آخر الدهر .. .

نقول لمن ينكر وجود الله : كذبت ، الله حق! والكون كله خلقه الفقير إليه ، القائم به !  
ونقول لمن يرى الآلهة ثلاثة أو أقل أو أكثر : ضللت فالله واحد ، وما عداه عبده  
سواء كان ملكاً أو إنساناً أو جنًا .. .

ونقول لأهل الأرض كلهم : إن محمدًا رفيع الشأن ، عرف الناس بالله أحسن تعريف ،  
وأعدهم للقاءه بعد الرحيل عن هذه الدنيا بأمررين ، الإيمان والصلاح : ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ  
إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرُوهَ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ .

ومن حق الإسلام أن يحيا ، ويبقى وينمو ، ويتداء! ما دام هناك مستمسك به ، راغب فيه .  
ولكتنا نشعر بأن أعداءه يضنون عليه بهذا الحق ، ويحاولون بالختل والجهر القضاء  
عليه ، أو تقليل وجوده فى أضيق نطاق .. .

وقد استطاع أعداؤنا - بتغريتنا وخبثهم - أن يحرجونا وينالوا مناً ويدلوا جانبنا ..  
ولكتنا صحونا من غفوتنا ، أو قمنا من كبوتنا ، وشرعونا نؤكد وجودنا ، ونوصد أبواب  
الفتنة التي انفتحت علينا من شرق وغرب .. !

وأحب أن تربو مشارع الثقة فى قلوب المسلمين الذين كتب عليهم أن يكونوا قلة فى  
أوروبا أو أمريكا أو آسيا أو إفريقيا ، وأن يستمدوا هذه الثقة من أنهم وحدهم الذين  
يعرفون الحقيقة التي بلغها أنبياء الله ، وأن مواريث السماء التي معهم لاتحرif فيها ولا  
غلو ولا إفك .. !!

إن الباطل لا يرفع خسيسته أن يكون صاحبه غنياً أو قوياً .. المهم أن يكون أهل الحق صورة مشرفة له مترجمة عنه ..

في إنجلترا وفرنسا ملايين من المسلمين ، إن هذه الملايين بين مائة مليون من البشر التائبين عن الله يمكن أن يكونوا هداة مقدورين ، وأئمة مشكورين ، يوم يكونون مسلمين حقاً .

وسيكونون سبة للإسلام ، وسداً دونه يوم تكون عقائدهم زائدة وخلافتهم هابطة . إن حساب العدد ينحتفي ، ويبرز حساب الكيف والأثر في بيئات كثيرة .. والهزيمة أو النصر شعور داخلي قبل أن تكون ظروفاً خارجية .

كان أحد العسكريين - في الخمسينات أو الستينات - يحدثني عن قطاع غزة ، وأنه خمسون ميلاً على ساحل البحر في عرض عدة أميال من فلسطين المحتلة ، وإن الدفاع عنه عسراً !

قلت له : هذا الشعور أول أسباب الهزيمة ، إن الجندي الجريء الجسور يشعر بأن القطاع - في شكله الحالى - رأس حربة ينفذ منها إلى بقایا الوطن المغتصب ، ويعده كسباً لا عبيداً ، أما الخور فيتحدث عن الوضع باللغة التي تقول :

إن الأقليات الإسلامية في العالم تبلغ ثلاثة ملايين أو يزيدون كما ذكرنا أول هذه الرسالة ، وهذا العدد إذا كان اتصاله بالإسلام عن طريق شهادات الميلاد ، فإن عشر هذا العدد من الوثنين المشركين سوف يغلبه ، ويلحق به الخسار ..

وعندى حديث آخر إلى المسلمين الذين يعيشون كثرة في بعض أقطار إفريقيا ، كثرة تبلغ ٧٠٪ في تنزانيا و٩٥٪ في السنغال .

إن هذا الوضع شاذ بالغ الشذوذ ويجب أن يتغير لا بالحماس الطائش ولكن بالإعداد الذكي ، والخطى المدرستة .

لقد اتضحت سياسة القوى المعادية للإسلام ، فقد قسمت الكيان الكبير أكثر من سبعين قطعة ، ثم وفرت لكل قطعة من العوامل المادية والأدبية ما يجعل الإسلام فيها يذبل ويتلاشى على مر الأيام ..

والخطة واحدة في الأجزاء التي سميت دولاً مستقلة ، والأجزاء التي يحيا فيها الموحدون قلة منقوصة منكورة .

ولعل من إخواننا المترغبين من يشرح في رسائل صريحة كيف تم صنع خمسين دولة في إفريقيا وأسيا يتيمه فيها المسلمون ، ويحيون دون رباط روحي أو فكري ودون كيان اجتماعي أو اقتصادي .. وكيف شغلوا الجماعات الإسلامية في الدول المستقلة بقضايا سخيفة ، ومعارك خاسرة ..

وكلمة أخيرة إلى المسلمين في دولهم المستقلة :

إن الفرق بين العالم الأول والعالم الثالث لا يرجع إلى أن المتفوقين قادرون على غزو الفضاء وصنع الطائرات العملاقة ، إن هذا مظهر التفوق لا سببه .

الواقع إن الفرق هو النشاط الذهني عند هؤلاء والكسل الذهني عند أولئك ، هو غزارة العلم هنا وضيالة العلم هناك ، هو توفير الفرص لنمو الأقوياء في الشعوب المتقدمة ، وتوفيرها لنمو التافهين والسفلة في الأمم المتخلفة ..

أى إنها أسباب خلقيّة ونفسية قبل أى شيء آخر ..

ويستطيع المسلمون المخلصون أن يقهروا العقبات التي تعترضهم في هذه الميادين مهما كانت جسمية ..

ونحن لانكنا لهم بصنع المعجزات ، فلينظروا إلى خصومهم اليهود وكيف تحملوا التحرير والتمزيق وصنعوا من آلامهم جسراً عبروا عليه إلى أرضنا وعرضنا ..

إننا نمثل أصدق وأقدس رسالة لعبادة الله ، وترشيد الحياة وتكريم البشر ..

وعلى العرب أن يعرفوا فضل الإسلام عليهم ، وأنه أكثى وجودهم وبقائهم ، لقد دخلوا به التاريخ فلما خانوه خرجوا من التاريخ أذلة مطرودين .

نعم ، هل العروبة هي التي هزمت فارس والروم ؟ لو أن العرب خرجوا من جزيرتهم يحدوهم عمرو بن كلثوم ببيته المشهور :

وَنَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا الْمَاءَ صَفْوًا

لضربوا بالنعال على حدود الدولتين العتيقتين ، ولكنهم خرجوا وراء عمر الخاشع لربه المتساوي مع خادمه الذي خاض بقدميه بركة ماء دون تألف وهو يقول : كنا أذل الناس حتى أعزنا الله بهذا الدين فمهما ابتعينا العز في غيره لن نفلح ..

على هذه الهيئة التقية المختبة لله تسلم مفاتيح بيت المقدس ..

ونقولها العرب اليوم بصوت عالٍ : إن فلسطين لن يحررها إلا جيش مسلم ، أما تجمع العرب بلا دين فلن يحرر جحر نملة . !!

ويجب أن يكون ولاؤنا للإسلام جاداً ، متقدماً على كل ولاء آخر للتراب أو للدم .

ومقتضى هذا ألا ينقطع لنا جوار بضرورة إلغاء القوانين الاستعمارية وجعل الشريعة الإسلامية المصدر الأوحد للقوانين كلها ، وإنعاش المعاهد الإسلامية المتخصصة حتى تستطيع سد كل ثغرة وإجابة كل مطلب ..

إن محو الإسلام في ميدان التقنيين كان العمل الأول للاستعمار يوم عسكرت حيوشه في بلادنا ، ومشت تختال على أنقاضنا ، ومقدساتنا المهشومة .

من أجل ذلك لا ينبغي التسويف في إعادة الحياة للشريعة التي أماتوها ، ورد مكانتها الرسمية المقصاة ..

وسوف يقاوم ذلك الأعداء التقليديون للإسلام الراغبون في محو معالمه وفض  
أتباعه ..

وبديه أن ينضم إليهم سماسترة جدد ، هم الشيوعيون الحانقون على كل ماله صلة  
بالسماء .. لقد تضافر هؤلاء وأولئك على محاربة الشريعة المبعدة ، وافتراء الأكاذيب  
عليها وعلى رجالها ، ولا دافع لكل هذا الغل إلا الكفر بالله ورسله ..

دهشت لأستاذ جامعي كبير كان مربوط اللسان مكسور القلم أيام الاحتلال  
الإنجليزي ، وما عرف له في المقاومة العامة تاريخ ولا شبه تاريخ .. وبغتة أخذت  
الصحف تنشر مقالات ملتهبة للرجل الذي سكت نصف قرن عن الإسهام بكلمة في  
الحياة العامة ، كلمة لها قيمة وبعد ..

ماذا يريد هذا المتحرك المفاجئ ؟ شتم المطالبين بتحكيم الشريعة والزعم بأن قطع  
الأيدي يتم في «الشفاخانات» .. !!

إن الرجل الذي لم يعرف بالدفاع عن وطنه أصبح مدافعاً عن اللصوص وسنجد في  
الطريق كثيراً من هؤلاء «الأذكياء» ولن يعوقوا القافلة السائرة ..

وعلى جماهير العرب أن يرفضوا تهويذ أي بلد من بلادهم أو علمنته أو تنصيره ، إن  
ذلك معناه سقوط ما يسمى بالشرق الأوسط في براثن الاستعمار العالمي ، وعندما  
يضرب القلب فلا قيمة للأجنحة .

إن هزائم القرن الرابع عشر الهجري أغرت بنا من لا يدفع عن نفسه ، ولقد تناوبتنا  
اللطمات على الخد الأيمن والأيسر ، وشعرنا بمعاناة هائلة من كثرة ما نالنا ..

لا بأس ، نحن الذين مكنا أعداءنا بنومنا الطويل ، واسترسالنا مع الأوهام ، ولم نع قول  
رينا : ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفِلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتَعْتِكُمْ فَيَمْلِئُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ ..

والى يوم ، ومع مطالع القرن الجديد تدق طبول اليقظة .

إننا ستحيا برسالتنا وسنحيا لها : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ ..

أظننا لن نحرز نجاحاً يذكر خلال القرن الجديد إذا بقينا على فقمنا الضيق المحدود الذي عشنا به خلال القرون الأخيرة ، فإن هذا الفقه لم يعالج الخلل المتواتر في علاقة الحكومات بالشعوب ، ولم يساند الحريات الصحيحة ، ولم ينم القدرات على علاج الأخطاء السياسية والاقتصادية الشائعة في بلادنا ..

وفي بلادنا تقاليد ربما كرهت الحرام - أو الرذيلة - لأن في الضمير الديني بقية حياة .. ولكن هذه التقاليد لا توسيع دائرة الحلال ، ولا تزيح العوائق المعاشرة في طريقه ، فكانت النتيجة أن حرمة الزنى مثلاً بقيت ! ويجب أن تبقى ، ولكن الزواج تكاثرت حوله الصعاب ، حتى يئس البعض من مناله ..

وهذه السلبية في الفكر الديني ترسيخه للموت ، ولا تؤهله للحياة ..

ومثل ذلك إجماع أهل الدين على أن الظلم حرام ، والكذب حرام ومع ذلك فهم يسكتون سكوت المقابر إذا وقع تزوير عام في انتخابات لخدمة فرد ، لأن الكذب يستنكر إذا كان بسيطاً ، ويسلم له إذا كان مركباً !

ومن المستحيل أن تصلح الأوضاع السياسية للمسلمين إذا كان الدين في وعيهم يهتم بفقه الحيض والنفاس ، ولا يكتثر لفقه المال والحكم ، بل إن مستقبل المسلمين كلهم سيخضع للحديث الصحيح : « لاتقدس أمة لا يقضى فيها بالحق ، ولا يأخذ الضعيف حقه من القوي غير متعنت » .

## الاجتهد الجماعي في العصر الحاضر

إن الكلام عن الاجتهد في الدين أصبح الشغل الشاغل عند كثير من الناس علمائهم ومثقفيهم وغيرهم في القرن العشرين . وأخذ كل واحد منهم يبدى رأيه فيه ويفسر الفكرة من وجهة نظره الخاصة ، وبقدر ما ازداد الخوض في الحديث عنه تعدد الأمر وتبعه عن التجلى والوضوح ، فقد اشتري بعضهم له الحديث ليحصل عن سبيل الله بغير علم ، واعتبر الاجتهد رخصة مفتوحة للناس ليقولوا في دين الله الأقاويل ويتخذوا من الآراء في أمور الشريعة حسبما اشتهرت نفوسهم ويدخلوا في الدين ما ليس منه ، ويخرجن منه ما جاء به الشارع وتعاملت عليه الأمة ، وكل ذلك باسم الاجتهد والتجدد والتمشى مع متطلبات الزمن ، أو حجة عيشنا في القرن العشرين ظنين أن الإنسان لم يعد إنساناً في هذا القرن وصار مخلوقاً غير الذي كان ؛ ولذلك أصبح في غنى عن الهدایة السماوية بعد تطويره العلوم التجريبية وبعد حيازته على القنابل المدمرة والصواريخ المهلكة ووسائل المواصلات السريعة ، وأمثال هؤلاء كثيرون في جميع البلاد الإسلامية ، وكأنهم اتخذوا الغرب إلهًا لهم إما شعورياً أو غير شعوري ، ثم عكفوا على ترميم بنية الإسلام وتصميم مبناه على طراز الفكر الغربي .. ويمثل هذا الاتجاه سيد أحمد خان ، وطه حسين وعلى عبدالرازق ، وتأثر بهم أناس كثيرون .

ولا أنكر أن هؤلاء وصلوا إلى نتائجهم بإخلاص نياتهم للإسلام والمسلمين . ولكن لاشك أن إخلاصهم لا ينحهم أى شهادة بكونهم على حق في آرائهم التي أثرت تأثيراً عميقاً في أذهان طائفة من الناس .. وقد ساعدت الظروف الاستعمارية السياسية والفكرية والاقتصادية ، على تعميق هذا التأثير ، وتكونت لديهم عقلية منهزمة

مستعبدة طفت عن رب موسى وهارون وأمنت برب ماركس وقارون ، ألا وهو المادة التي هي أكبر صنم صنعته البشرية واتخذته إلهاً .

ونرى على جانب آخر طائفة أخرى اتخذت موقفاً في النهاية الأخرى لاتفهم الشريعة إلا في لغة القرن العاشر ، وتقديم صورة جامدة وراكدة للشريعة لا مجال فيها للاجتهاد والتفتح البتة ، ولا يتتجاوز فهمهم ودرايتهم بعض كتب الفتاوى والنصوص الفقهية .. فصار معنى التفقه عندهم فقه الفقه ومعرفة آراء المتأخرین وليس فقه الشريعة من مصادرها ، وكل من الاتجاهين نتيجة لرد فعل أحدهما على الآخر ، وربما كان ظهور الاتجاه التحرري السابق سبباً في توطد هذا الموقف وتصلب أصحابه على آرائهم الجامدة .

وقد استمر هذا بعد في زاويتي نظر هاتين الطائفتين المتطرفتين منذ وقت طويلاً ، ولا زال قائماً بينهما وأصبح العلماء فيها طرائق قدماً . فمن قائل يقول : إن باب الاجتهاد مغلق لا يدخله أحد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولم يدخله أحد بعد القرن الرابع الهجري .. وهناك من يقول : إن باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه ويرحب بكل من هب ودب ويدعوه أن يدخل فيه ويتشوش الأذهان ويحدث بلبلة في الأفكار . وهناك من يقول أقاويل لا فائدة بذكرها هنا ، فإن ذلك يطول به الكلام . وإذا رأينا إلى هذه البلبلة الفكرية والفوضى العلمية لاندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم رיהם رشداً!

### كلمة عن الاجتهاد وأنواعه:

اتفق العلماء على تعريف معنى الاجتهاد ، بيد أن عباراتهم في وضع تعريف هذا الاصطلاح تختلف من فقيه إلى فقيه . ولكننا ننقل هنا عبارة الإمام الغزالى . فالاجتهاد عنده عبارة عن : **بذل المجهود واستفراغ الوسع في فعل من الأفعال**

ولا يستعمل إلا فيما فيه كلفة وجهد . . . (وفي عرف الفقه) : بذل المجتهد وسعه في طلب  
العلم بأحكام الشريعة<sup>(١)</sup> .

والاجتهاد له عدة أنواع فله نوعان من حيث المجتهد فيه:

الأول : هو الاجتهاد في دائرة النص ، وهو يتضمن الاجتهاد في معرفة القواعد الكلية التي هي الدليل الإجمالي كاجتهاد الحنفية في دلالة العام والمطلق أنها قطعية في مدلولها فلا يخصصها ولا يقيدها خبر الأحاديث إلا إذا صارت ظنية بالشخص والتفصيد ، أو كاجتهاد الشافعية في أن دلالة العام والمطلق ظنية فتخصص بخبر الواحد .

الثاني : الاجتهاد بطريق النظر ، يتضمن قياس المجتهد في أمر لا نص فيه ولا إجماع على ما ورد فيه نص أو حكم مجمع عليه ، كما يتضمن استنباط الحكم من قواعد الشريعة الإسلامية العامة مما أطلق عليه بعض الفقهاء اصطلاح الاجتهاد بالرأي .

**حاجتنا إلى الاجتهاد اليوم:**

إن حاجتنا إلى الاجتهاد اليوم أكبر بكثير من حاجتنا إليه بالأمس ، فهناك كثير من القضايا والمشاكل التي تتجدد كل يوم ، وكل شمس تطلع على الأمة المسلمة تأتي بمجموعة جديدة من القضايا والمسائل التي تتطلب الحل في ضوء الشريعة الإسلامية ، ونذكر على سبيل المثال بعض المشاكل المعاصرة التي تدعو إلى ممارسة الاجتهاد لإيجاد حلول إسلامية لها :

١ - دور الإسلام والمسلمين في البيئات التي يشكل فيها المسلمون أقلية ، وخاصة في البلاد الديموقراطية العلمانية التي لا تعترف بوجود أي دين على نطاق رسمي ،

---

(١) الإمام الغزالي : المستصفى من علم الأصول ، طبع المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ، ١٩٣٦ - هـ ١٣٥٦ ، مجلد ثان ، ص ١٠١ .

فيواجه المسلمون فيها عدداً من القضايا التي تنتج من هذا الوضع الذي لم يعالج فقهاؤنا الكبار ، وذلك لأن المسلمين في عصور أجياله الفقهاء لم يواجهوا هذا الوضع .

- ٢ - علاقاتهم مع غير المسلمين في دول علمانية (هل نعتبرها دار الحرب أو نعتبرها دار العهد ، أو نضع قسماً خاصاً في ضوء أوضاعنا الحالية؟) .
- ٣ - دورهم في دول ملحدة ولا دينية ، لا تسمح بوجود أي نشاط ديني بين المواطنين .
- ٤ - هل يكون دورهم في بلاد غير مسلمة دوراً سلبياً انفعالياً أو دوراً إيجابياً فعالاً؟!
- ٥ - كيف تنظم العلاقات الإيجابية البناءة بين أحكام الشريعة الإسلامية وبين النظم الحديثة ، فالانتخابات والتصويت ، وال المجالس النيابية وكيفية تنظيم الشورى وما إليها من النظم الحديثة تحتاج إلى استقرار الرأي الإسلامي المجمع عليه .
- ٦ - ميكانيكية لبناء هيكل اقتصادي حديث مستمد من أحكام الشريعة ومستهدف لتحقيق مقاصدها .

ولكن قبل أن نتكلّم عن دور الاجتهاد في حل هذه القضايا يجدر بنا أن نقول : إن الاجتهدان نوعان عند من يقول بإمكان تجزؤ الاجتهاد :

- ١ - اجتهاد مطلق في جميع الأحكام الشرعية من أولها إلى آخرها .
- ٢ - واجتهاد مقيد ، وهو اجتهاد في حكم دون حكم ، وهو ما يقتدر به على استنباط بعض الأحكام والمسائل التي تتجدد من حين لآخر ، وهي ما سماه الفقهاء الأحناف بالنوازل ، وذلك لأن كل حكم شرعى ليس فيه دليل قطعى هو محل الاجتهاد ، فلا يجوز الاجتهاد فيما ثبت بدليل قطعى كوجوب الصلوات الخمس والزكوات وباقى أركان الإسلام ، ولا شك « إن الحوادث والقضايا التي تتولد من



التصوفات الإنسانية لا يمكن تحديدها، ومن المعلوم أننا لا نجد في الشريعة حكماً صريحاً لكل قضية جديدة، ولا يمكن أن يكون ذلك، فإذا كانت الحوادث والقضايا غير متناهية وأحكام الكتاب والسنة الصريحة متناهية محدودة، والمحدود لا يسعه إلا محدود عالم قطعاً أن الاجتهاد والقياس شيء له قيمة في كل زمان ما دامت الحوادث متعددة، والآحوال متغيرة والقضايا مستحدثة لأن كل حادث يدعو إلى الاجتهاد» (٢) .

### قضية تجزؤ الاجتهاد:

وهنا تأتي قضية تجزؤ الاجتهاد التي كانت موضع خلاف بين فقهاء الإسلام ، ولكن الذي ذهب إليه المحققون هو أن الاجتهاد ليس منصباً لا يتجزأ ، بل يجوز أن يقال للعالم أنه حائز على منصب الاجتهاد في بعض الأحكام دون بعض ، فمن عرف طريق النظر القياسي فله أن يجتهد ويفتى في مسألة قياسية ، وإن لم يكن ماهراً في علم الحديث ، فمن ينظر في مسألة المشتركة يكفيه أن يكون فقيه النفس عارفاً بأصول الفرائض ومعانيها وإن لم يكن قد حصل الأخبار التي وردت في مسألة تحريم المسكرات أو في مسألة النكاح بلا ولد ، فلا استمداد لنظر هذه المسألة منها ولا تعلق لتلك الأحاديث بها . فمن أين تصير الغفلة عنها أو القصور عن معرفتها نقصاً . ومن عرف أحاديث قتل المسلم بالذم والطريق التصرف فيه فلا يضره قصوره عن علم النحو الذي يعرف به قوله تعالى : ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ . وقس عليه ما في معناه . وليس من شروط المفتى أن يجيب عن كل مسألة ، فقد سئل الإمام مالك - رحمه الله - عن أربعين مسألة ، فقال في ستة وثلاثين منها : لا أدرى ، وكم توقف الشافعى - رحمه الله - بل الصحابة في المسائل (٣) .

(٢) الإمام الشهري: الملل والنحل .

(٣) الإمام الغزالى: نفس المصدر ، ص ١٠٣ .

## من يقوم بالاجتهاد؟

وقد بسط فقهاء الإسلام القول فيما لابد من معرفته لمن يقوم بالاجتهاد ، ولعل أحسن ما كتبه في هذا الصدد هو ما جاء في كتاب المستصفى للإمام الغزالى . والعلوم التي لابد منها للتحصيل منصب الاجتهاد عند الإمام الغزالى هي كالتالى :

١ - الكتاب

٢ - السنة

٣ - الإجماع

٤ - العقل

٥ - نصب الأدلة وشروطها

طريق ٦ - اللغة وال نحو

الاستثمار ٧ - الناسخ والمنسوخ

٨ - علم الرواية

وهذا علمان مقدمان

وهما علمان متتممان

(المستصفى ، مجلد ثانٍ ، ص ١٠١ - ١٠٢)

وإليكم تفصيل هذا الإجمال في ضوء كتاب «المستصفى»:

كتاب الله:

١ - لا يشترط معرفة جميع الكتاب ، بل ما تتعلق به الأحكام منه وهو مقدار خمسين آية .

٢ - لا يشترط حفظها عن ظهر قلبه ، بل يكفى أن يكون عالماً بمواضعها بحيث يطلب فيها الآية المحتاج إليها في وقت الحاجة .

### السنة:

- ١ - لابد من معرفة الأحاديث التي تتعلق بالأحكام ، وهي وإن كانت زائدة على ألف فهى ممحضورة .
- ٢ - لا يلزم معرفة ما يتعلق من الأحاديث بالمواعظ وأحكام الآخرة وغيرها .
- ٣ - لا يلزم حفظها عن ظهر قلبه بل يكفى أن يكون عنده أصل مصحح لجميع الأحاديث المتعلقة بالأحكام كسن أبي داود ، ومعرفة السنن لأحمد والبيهقي ، أو أصل وقعت العناية فيه بجميع الأحاديث المتعلقة بالأحكام ، ويكفيه أن يعرف موقع كل باب فيراجعه وقت الحاجة إلى الفتوى وإن كان يقدر على حفظه فهو أحسن وأكمل .

### الإجماع:

- ١ - ينبغي أن تميز عنده موقع الإجماع حتى لا يفتى بخلاف الإجماع .
- ٢ - كما يلزم معرفة النصوص حتى لا يفتى بخلافها .

والتحفيف في هذا الأصل أنه لا يلزم أن يحفظ جميع موقع الإجماع والخلاف ، بل كل مسألة يفتى فيها في ينبغي أن يعلم أن فتواه ليس مخالفًا للإجماع ، أما بأن يعلم أنه موافق مذهبًا من مذاهب العلماء أيهم كان ، أو يعلم أن هذه واقعة متولدة في العصر لم يكن لأهل الإجماع فيها خوض فهذا القدر فيه كفاية .

### العقل:

تعنى به مستند النفي الأصلى للأحكام فإن العقل قد دل على نفي المخرج في الأقوال والأفعال وعلى نفي الأحكام عنها من صور لانهاية لها . أما ما استثنى الأدلة السمعية من الكتاب والسنة فالمستثنى ممحضورة ، وإن كانت كثيرة ، في ينبغي أن يرجع في كل واقعة إلى النفي الأصلى والبراءة الأصلية .

## العلماني المقدمة:

١ - معرفة نصب الأدلة وشروطها التي بها تصير البراهين والأدلة منتجة وال الحاجة إلى هذا تعم المدارك الأربع ، (من الكتاب والسنة والإجماع والعقل) .

٢ - معرفة اللغة وال نحو على وجه يتيسر له فهم خطاب العرب هذا يخص فائدة الكتاب والسنة .

... والتحفييف فيه أنه لا يشترط أن يبلغ درجة الخليل والبرد ، وأن يعرف جميع اللغة ويتعمق في النحو ، بل يكفيه القدر الذي يتعلق بالكتاب والسنة ويستولى به على موقع الخطاب ودرك حقائق المقاصد منه <sup>(٤)</sup> .

ولابد إلى جانب هذا كله معرفة حاجات الناس وعاداتهم وطبائعهم فإن شريعة الله لا تنفذ إلا على الناس ولا تطبق إلا في بيئه من الناس . وبدون معرفة ما يتعلق بعاداتهم وطبائعهم لا يمكن للمجتهد أن يصل إلى نتيجة إيجابية . وأشار الإمام ابن القيم إلى أهمية هذه المعرفة ، فيقول :

« ومن أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتاب على اختلاف عرفهم وعاداتهم وأزمنتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم فقد ضل وأضل ، وكانت جنائيته على الدين أعظم من جنائية من طب الناس كلهم على اختلاف بلادهم وعاداتهم وأزمنتهم وطبائعهم بما في كتاب من كتب الطب ، على أبدانهم ، بل لهذا الطبيب الجاهل وهذا المفتى الجاهل أضر ما على أديان الناس وأبدانهم » <sup>(٥)</sup> .

## دعواتنا إلى الاجتهد الجماعي:

إن الاجتهد يمكن أن نقسمه إلى قسمين:

(٤) مصدر سابق ، ص ١٠١ - ١٠٣ .

(٥) الإمام ابن قيم الجوزية : أعلام الموقعين ، مجلد ثالث ، ص ٧٨ .

١ - اجتهاد فردي .

٢ - واجتهاد جماعي .

لاشك أن الشريعة الإسلامية تسمح لممارسة كل من هذين القسمين . وقام كبار الفقهاء المجتهدين أمثال الإمام الأوزاعي والإمام الشافعى والإمام مالك - رحمهم الله تعالى أجمعين - وغيرهم بالقسم الأول من هذين القسمين ، وكتب الله لجهودهم القبول والشروع . ولكن نرى منذ البداية أن القسم الثانى للاجتهاد - وهو الاجتهاد الجماعى - كان سائداً بين طبقة من كبار الفقهاء . فكان الخلفاء الراشدون وخاصة الشیخان - رضى الله عنهم - لا يقدمان على الاجتهاد الفردى بل كانوا يطرحان القضية أو النازلة عند مجمع من أهل العلم والفقه ، ليجتمع كل منهم فى دراسة القضية وخارج ما عنده من الرأى والعلم بالكتاب والسنّة ، ثم يجتهدون ويصلون إلى نتيجة نهائية .

فروى الإمام البخارى والدارمى والبیهقى أن سيدنا أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - إذا رفعت إليه قضية نظر فى كتاب الله ، فإن وجد فيه شيئاً نفذه ، فإن أعياه ذلك رجع إلى السنّة ، فإن وجد فيها شيئاً عمل به ، « وإن أعياه ذلك دعاؤه وس المسلمين وعلماءهم ، فاستشارهم ، فإذا اجتمع رأيهم على الأمر قضى به »<sup>(٦)</sup> .

ويقول الإمام الباقلانى : وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لا ينفذ الأحكام إلا بمجمع من أصحابه وحضورهم ومشاورتهم مع فضله وفقهه وحسن بصيرته بأخذ الأحكام وطرق القياس ومعرفة الآثار<sup>(٧)</sup> . وربما كان الخلفاء الراشدون يدرسون القضية مع أصحاب العلم شهراً ، فيروى الإمام عامر الشعبي أن القضية كانت ترفع إلى عمر وربما يتواصل في ذلك شهراً ويستشير أصحابه<sup>(٨)</sup> .

(٦) انظر البیهقى : السنن الكبرى ، طبع حیدر آباد مجلد ١٠ ، ص ١١٤ - ١١٥ .

(٧) الإمام أبو بكر الباقلانى : كتاب التمهيد ، طبع القاهرة ١٩٤٧ م . ص ٢٠٠ .

(٨) الإمام السرخسى : المبسوط ، مجلد ٦ ، ص ٨٤ .

ومن أهم أمثلة ما قضاه الخلفاء الراشدون والصحابة باجتهادهم الجماعي:

١ - مسألة تدوين القرآن .

٢ - الاجتهاد ضد مانعى الزكاة .

٣ - ميراث الجدة .

٤ - عدم تقسيم أراضى السواد وغيرها من المسائل .

ثم نرى الإمام أبا حنيفة النعمان - رحمه الله - الذي أنشأ مجمعًا كبيرًا من العلماء والفقهاء والمحدثين وأصحاب الجرح والتعديل والمفسرين وعلماء اللغة والكلام ، قام معهم بتدوين المذهب الحنفي الذي يمثل أحسن مثال للاجتهاد الجماعي في عهد التابعين وأتباع التابعين . ولكن هذا الأسلوب الجماعي للاجتهاد الذي وضعه الإمام أبو حنيفة - رحمه الله - لم يستمر بعده . ولو استمر على منواله السابق لكان فيه خير كثير للإسلام وال المسلمين . ولكن فضل إحياء هذه السنة في القرون الأخيرة يرجع إلى السلاطين العثمانيين الذين شكلوا لجنة من أهل العلم لهذا الغرض ، ولا شك أن تدوين مجلة الأحكام العدلية على أيدي جماعة من العلماء من أهم الخطوات التي اتخذت في سبيل الاجتهاد الجماعي في عصرنا الحاضر .

**الأسباب التي تقتضي ممارسة الاجتهاد الجماعي:**

١ - لم يبقَ بين المسلمين أناس بالمستوى الرفيع من العلم والمعرفة والأخلاق والورع بحيث يقبل عامة المسلمين على فتاواهم كما كان الحال في الماضي مع علمائنا السلف .

٢ - المسلمون متفرقون مشتتون منقسمون إلى ٤٧ دولة مستقلة منفصلة بعضها عن البعض ، والاجتهاد الفردي إذا استمر على وثيرته السابقة فلا يؤدي إلا إلى مزيد

من التفرق والتشتت ، فاجتهاد الباكستانيين يكون مختلفاً حينئذ عن اجتهاد المصريين ، وما سيصل إليه السعوديون قد يختلف عما يصل إليه الجزائريون ، وهذا الاختلاف قد يتجاوز حدوده المعقولة المسموحة بها في شريعة الله ، وهذا أمر سوف يجعل أعداء الإسلام يسخرون منا ومن ديننا .

٣ - إن تدخل الحكومات في كافة شئون المجتمع يحول دون ممارسة الاجتهاد الفردي ، وإبداء الآراء في المشاكل القائمة بكل حرية و موضوعية ، ولكن اتحاد الآراء واجتماع الأفكار بين علماء المسلمين المنتدين إلى البلاد الإسلامية كلها يعطيهم وزناً ومكانة لا ينزعهما حاكم مستبد ولا سلطان جائر .

وما ترثاه إليه النفوس وتقر به الأعين أن الأمة الإسلامية بدأت الآن تتجه إلى هذا الاتجاه اتجاهًا حسناً . فإنها أدركت أن الاجتهاد الجماعي أقرب إلى الاحتياط والصواب والأطمئنان من الاجتهاد الفردي ، وخاصة في عهد قيد فيه الزمان ، وندر فيه العالم المتعمق ، وقل فيه الصلاح والتقوى ، وانتشر فيه التعليم ، وتشعبت فيه العلوم والفنون وأصبح العصر عصر الاختصاص ، فلا نجد فيه أنساً يجمعون بين أصناف العلوم ، ويتعمقون في علوم الشريعة كلها كما تعمق فيها السلف الصالحون ، وأن أغلبية من يدعون بالعلم في عالمنا الإسلامي لا يتمتعون بشقة الناس بصلاحهم وتقواهم وخشيتهم لله وحبهم لرسوله .

فبدأت والحمد لله مظاهر سير الأمة الإسلامية على هذا الاتجاه المبارك المنشود . فعقد ندوات ومؤتمرات عديدة للبحث والدراسة في قضايا الفقه الإسلامي المختلفة ، ونشر موسوعات فقهية في بلاد مختلفة ، وتأسيس المجمع الفقهية المتعددة ، وإنشاء منظمة قانونية دولية تحت إشراف المؤتمر الإسلامي ، وما إلى ذلك من الخطوات كلها ، إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الفقهاء المسلمين المعاصرين بدأوا يدركون أهمية

هذا العمل في العصر الحديث ، ولا يسعني أن أنسى هنا ما قام به الإمامان الجليلان العالمة مصطفى أحمد الزرقا و العالمة محمد حميد الله من جهود علمية وتقديم برامج عملية للوصول إلى هذه الغاية المنشودة .

والذى يراه كاتب هذه السطور في مجال تحقيق هذا الهدف هو كما يلى:

١ - من المعلوم أن الفقه الإسلامي والثروة الحقوقية الهائلة التي قام بإنتاجه آلاف الفقهاء عبر القرون لم تظهر إلى حيز الوجود بجهود حكومية أو شبه حكومية ، بل قام بإنتاجه العالم في مكتبه ، والمدرس في مدرسته ، والفتى في دار إفتائه ، والقاضي في محكمته ، كل ذلك دون أدنى تدخل من الحكماء وولاة الأمر ، وكل ما نراه من التطور القانوني الذي لا مثيل له ولا نظير عند أمة من الأمم حدث كله على نطاق غير رسمي بحث . فالإمام أبو حنيفة وزملاؤه من الفقهاء الأجلاء لم يكونوا أعضاء في مجلس شكله ولئن الأمر ، ولم يكن الإمام مالك - رحمه الله - عضواً في أي برلمان أو هيئة تشريعية ، وكذلك الأئمة والفقهاء الآخرون لم يعينهم خليفة من الخلفاء أو ملك من الملوك ولم يطلب منهم أن يقوموا بهذا العمل التشريعي ، بل كان بعضهم موضع حقد وعرضة اضطهاد من قبل ولة الأمر ، كما لا يخفى على المطلع الخبرير ، وكفاك مثالاً ما قاساه الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - من مصائب وشدائد .

وقصاري القول أن طبيعة الفقه الإسلامي هي الحرية التامة والاستقلال الكامل عن تدخل الحكومات والهيئات الرسمية . فيجب أن يكون هذا العمل الضخم - وهو الاجتهاد الجماعي - حرّاً ومستقلاً عن الحكومات والإدارات الرسمية ويقوم على نطاق غير رسمي بحث .

٢ - نحن نعيش الآن في عصر أصبحت فيه البشرية أسرة واحدة ، ولكن العالم

الإسلامى الذى كان ، ويجب أن يكون ، أسرة واحدة لم يعد مع الأسف أسرة متحدة . بل أصبح على أيدي الاستعمار الغربى متفرقاً ومشتتاً . ولكن زعماءنا ، والحمد لله ، يقومون بجهود مشكورة لتوحيد كلمة المسلمين وجمع شملهم فى جميع مجالات الحياة .

إذا كان المسلمون فيما مضى قرروا أن يقلدوا مذهبًا فقهياً معيناً فى منطقة معينة نظراً إلى أسباب عديدة من صعوبة السفر وقلة وسائل النقل وبطئها وعدم وجود كتب وعلماء من مذهب فقهى آخر فهذه الأسباب قد زالت الآن بسهولة السفر وكثرة وسائل النقل وسرعتها وتوفى المصادر الفقهية من جميع المذاهب الإسلامية فى جميع بقاع العالم . فإذا زال السبب يجب بطبيعة الحال أن يزول المسبب ، فيجب علينا الآن أن نخرج من ضيق المذاهب إلى سعة الشريعة الإسلامية السمحاء السهلة ، ونختار من جميع المذاهب وأراء الفقهاء ما هو الأصلح والأنسب لعصرنا هذا وما هو الأقرب إلى روح الشريعة الإسلامية وأوفق بالعدل والقسط بين الناس .

وهذا الفقه المقارن لم يكن سهلاً أخذه والعمل به فيما مضى لما ذكرنا . فأفتى بعض العلماء بوجوب اتخاذ مذهب معين . ولكن كلما تيسرت الظروف مثل هذا الموقف لم يتردد فقهاؤنا الكبار فى الأخذ من جميع المذاهب . فيقول الإمام ولى الله الدهلوى فى كتابه الإنصاف فى بيان سبب الاختلاف :

فإذا كان إنسان جاهل فى بلاد الهند وبلاد ما وراء النهر وليس هناك عالم شافعى ولا مالكى ولا حنفى ولا كتاب من كتب هذه المذاهب وجب عليه أن يقلد مذهب أبى حنيفة ، ويحرم عليه أن يخرج من مذهبـه ، لأنـه حينـئذ يخلـع من عنـقه رقـة الشـريـعـة ويبـقـى سـدـى مـهـمـلاً ، بـخـلـافـ ما إـذـاـ كانـ فـىـ الـحـرـمـىـنـ فـإـنـهـ يـتـيـسـرـ لـهـ هـنـاكـ مـعـرـفـةـ جـمـيعـ المـذـاـهـبـ ، وـلـاـ

يكفيه أن يأخذ بالظن من غير ثقة، ولا أن يأخذ من السنة العوام ولا أن يأخذ من كتاب غير مشهور<sup>(٩)</sup>.

ولابد هنا أن أشير إلى قضية هامة وهي أننا قبل أن نخوض في بحر الفقه المقارن أو «الفقه الإسلامي العالمي» إذا جاز التعبير، يجب علينا أن نتفق أولاً على قواعد ومبادئ أصولية نبني عليها هذا البناء الرفيع، ولابد أن تكون هذه القواعد والمبادئ الأصولية مستخرجة من جميع المذاهب الإسلامية والأراء الفقهية.

٣ - وأما الجهاز الإداري والطريق العملى للقيام بهذه المهمة هو في رأىي المتواضع كما يلى :

أ - يؤمن مركز عالمى لهذا الغرض في مدينة إسلامية كبيرة ، مثل كراتشى وبيروت والقاهرة ، ويضم هذا المركز على الأقل عشرة فقهاء كبار بتخصصات مختلفة . فإن هذا العصر هو عصر الاختصاص والتخصص والتعمق في فرع من فروع العلوم ، لأن العلوم شعبت والمكتبات كثرت ، والتأليف تدفقت ، ولم يعد بإمكان أحد أن يستوعب جميع ما كتب ويكتب في العلوم الإسلامية وفيما يحتاج إليه في الاجتهد الجماعي ، ولا يستطيع أحد أن يحوى فرعاً من الفروع أو علمًا من العلوم كلها . والمسائل أصبحت معقدة ، فما من قضية إلا ولها صلة بعديد من العلوم والاختصاصات ، فلما لم يكن للمجتهد معرفة بجميع تلك العلوم والاختصاصات التي لها صلة بحل تلك القضية الواحدة لا يمكن له أن يبدى رأيه في قضية واحدة ، فما ظنك في القضايا المستحدثة كلها؟ فلا يمكن استفراغ الوعي إلا بمعرفة جميع هذه العلوم واستخدامها في الاجتهد الجماعي . ولنأخذ مثلاً قضية تطبيق نظم الزكاة والعشر في دولة إسلامية حديثة ، فإذا أردنا أن نضع لهذا الغرض لائحة في ضوء الشريعة الإسلامية فسوف نحتاج

(٩) الإمام وئى الله الدهلوi : الإنفاق في بيان سبب الاختلاف ، طبع المطبع المجتبائى دهلي ١٣٠٣هـ ، ص : ٧٠ - ٧١ .

فيها إلى معرفة الآيات المتعلقة بالزكاة مع جميع ما ذكره الفقهاء والمفسرون من التفاصيل حول العام والخاص والمطلق والمقييد والمفسر والمجمل والمحكم والمتشابه ودلالة المنطق ودلالة الفحوى ودلالة النص وإشارته واقتضائه وعبارته وغير ذلك ، ثم نحتاج إلى معرفة كل ذلك من الأحاديث المتعلقة بالموضوع بالإضافة إلى سندتها ورواتها وجرحهم وتعديلهم وتأویل المخالف من هذه الأحاديث ، ثم إلى معرفة الأحكام الفقهية الجموع عليها واختلاف الفقهاء واجتهاداتهم وأدلة لهم فيها ، ثم إلى معرفة علم الأصول وما إليه من علم القواعد الكلية والفروق والأشباه والنظائر ، ثم إلى معرفة الاقتصاد الوضعي ، ونظام البنوك ، والمؤسسات المالية ، ونظام الضرائب ، والنظم الحكومية ، ونظام الزراعة ، وعلم الحساب والرياضيات ، وعلم الكمبيوتر وغير ذلك مما يطول ذكره ، فلابد أن يكون في المركز اختصاصيون مختلفون متعمقون في هذه الفروع المختلفة .

ب - تؤسس مراكز فرعية لهذا المركز الرئيسي في جميع المدن الإسلامية الرئيسية ، ويضم كل فرع على الأقل عشرة أشخاص ، منهم أعضاء وأعضاء منتسبيون . ونعني بالأعضاء المنتسبين جماعة من العلماء الذين يستفاد من علمهم وخبرتهم في مجالات مختلفة ولا يكونون أعضاء كاملين لعدم بلوغهم إلى الدرجة المطلوبة من العلم بالشريعة الإسلامية ، ويضم كل مركز فرعى جماعة من المתרגمين الأكفاء الذين يقدرون أن يترجموا البحوث الفقهية من اللغة العربية إلى لغتهم المحلية وبالعكس ليتمكن الأعضاء المنتسبون من إبداء آرائهم في الموضوع المطروح .

ج - تنشر جريدة رسمية شهرية لهذا المركز باللغة العربية ، وترسل إلى جميع المراكز الفرعية ، وتنشر فيها آراء الفقهاء المعاصرين مع أدلةهم ومناقشتها من قبل الأعضاء .

د - ولا تمنع العضوية الكاملة لأحد إلا إذا شهد بكافأته على الأقل عشرة أعضاء

كاملين من خمس جنسيات مختلفة ، والجدير بالذكر أننا لا نريد أن تكون للهيئة الرسمية أى دور في تعين الأعضاء أو الأعضاء المنتسبين .

هـ - ينبغي ألا تنتهي المناقشة على قضية واحدة في أقل من ثلاثة سنوات لتجلى جميع النواحي المتعلقة بالموضوع ويأتي كل فقيه بما عنده من الآراء والأدلة .

و - لا بد أن يكون كل واحد من الأعضاء حائزًا على الصفات الآتية :

١ - أن يكون مسلماً عدلاً بالغاً من العمر أربعين سنة فما فوقها ، على أن يسمح لمن دون هذا السن أن يكون عضواً منتسباً .

٢ - أن تكون خبرته في مجال تدريس الشريعة أو التأليف فيها أو الإفتاء فيها أو القضاء لمدة لا تقل عن خمس عشرة سنة .

٣ - أن تكون له بحوث مطبوعة في مختلف مجالات الشريعة بحيث تمتاز بالأصالة والعمق وسداد الفكر .

٤ - أن يكون معروفاً في بلده بصلاحه وتقواه وأمانته العلمية ورفعه لواء الشريعة .

٥ - أن تكون لديه معرفة ما سبقت الإشارة إليه من العلوم الثمانية كما ذكره الإمام الغزالى رحمه الله في المستصفى .

ز - لا بد أن يكون في كل مركز فرعى جماعة من الأعضاء المنتسبين من أهل العلم والثقافة العصرية وعلماء الشريعة المشهود لهم بالصلاح والتقوى ، ليستفيد الأعضاء الكاملون من عملهم وتجاربهم وخبراتهم ، وينبغي ألا يعين أحد عضواً منتسباً إلا إذا شهد بكافاته ثلاثة أعضاء كاملين على الأقل .

## لماذا لا نقتبس من الديمقراطيات الغربية؟

إن الديمقراطيات الغربية إجمالاً وضعت ضوابط محترمة للحياة السياسية الصحيحة ، وينبغي أن ننقل الكثير من هذه الأقطار لنسد النقص الناشئ عن جمودنا الفقهي قرона طويلة ..

وقد قلت ومازالت أقول : إننا أغلقنا باب الاجتهد قرابة ألف عام ، فإذا سبقنا غيرنا في شئون إنسانية مطلقة ، فلا معنى لاستكبارنا عن الإفادة منه ، ولا معنى لابتداء السعي من حيث وقفنا متجاهلين كدح غيرنا نحو الكمال !

والنقل والاقتباس هو في خدمة مبادئ مقررة عندنا ابتداء ، أى إننا ما خرجننا عن خطنا العتيد ، ولا ارتضينا أهدافاً أخرى ..

إذا حصنت الشورى هناك بضمانت شتى لمنع الطغيان ، واقدار المحقين على النصح والنقد والمعارضة في أمان ، فلحساب من ترفض هذه الضمانت؟ لله ولرسوله أم للفساد السياسي المتوطن في أكثر من قطر؟

إذا حصنت الأموال العامة والخاصة بضمانت مضاعفات لتنقية المكاسب ، ومنع السلب والنهب ، أو إذا بحثت أحوال المرهقين والعجزة لسوق عون شريف لهم ، فما الذي يصدنا عن نقل هذه الحصانات والاستقصاءات لحراسة مجتمعنا؟ الحق أن التفاس في هذا المجال لا يقع إلا لخدمة ولاة السوء وحواشيهم ، وإبقاء الجماهير حبيسة تقاليد وضعها لصوص كبار .. .

في الربع الأول من القرن العشرين حصلت مصر على دستور من أحدث الدساتير وأقواها على حماية الأفراد والجماعات ، لم يعبه إلا أنه اعتبر منحة من «الملك» ، بيد أن بنوده أمكنت النواب من اعتراض نفقات الملك لما أراد أن يصلح باخرته الخاصة من الموازنة العامة!

وانتصرت إرادة الشعب ، وسد باب من أبواب السطو الملكي الكريم !!  
وبقى هذا الدستور ثلاثين عاماً ، عطل فى أثنائها مرة ، وزورت الانتخابات فى  
وجوده مراراً ، ومع كل الأزمات التى أصابته فإن الحريات العامة تغلبت على العلل  
المصنوعة ، فنمـت الرجولة ، ونضـجت الكرامة ، وانتـعشـ العلمـ والأـدبـ ، وـتـكـونـتـ  
جماعـاتـ دـينـيـةـ قـوـيـةـ ، وـاستـطـاعـ الإـخـوـانـ الـمـسـلـمـوـنـ أـنـ يـنـسـجـوـاـ شبـكـةـ منـ الشـعـبـ الفـتـيـةـ  
فـىـ أـرـجـاءـ الـبـلـادـ كـلـهـاـ .

لكنـ الأـمـرـ الذـىـ يـقـبـضـ الصـدـرـ وـيـحـدـثـ الأـسـىـ أـنـ مـوـقـفـ الـمـتـدـيـنـ مـنـ هـذـاـ دـسـتـورـ  
كـانـ قـلـةـ الـاـكـتـرـاثـ .

فـالـأـزـهـرـ الرـسـمـيـ كـانـ إـلـىـ جـانـبـ الـقـصـرـ الـمـلـكـيـ ، وـالـهـيـئـاتـ الـإـسـلـامـيـةـ الشـعـبـيـةـ تـقـدـرـ  
الـنـعـمـةـ المـتـاحـةـ لـهـاـ فـىـ ظـلـ هـذـهـ الـحـرـيـاتـ الـمـبـذـوـلـةـ ..

وـلـكـنـ شـيـئـاـ مـنـ هـذـاـ لـمـ يـكـنـ يـجـيـزـ لـجـمـهـورـ الـمـتـدـيـنـ أـنـ يـقـفـ مـتـفـرـجـاـ فـىـ مـيـدـاـنـ  
الـصـرـاعـ بـيـنـ الـقـصـرـ وـالـوـفـدـ عـلـىـ اـحـتـرـامـ هـذـاـ دـسـتـورـ أـوـ إـسـقـاطـهـ ..

فـإـنـ خـيـاعـ الـحـرـيـةـ وـاسـتـبـادـ الـفـرـدـ هـمـ مـهـلـكـةـ الـأـمـ وـالـقـيـمـ وـذـهـابـ الـيـوـمـ وـالـغـدـ ..  
ذـلـكـ ، وـالـرـجـالـ الـذـيـنـ لـاـ يـكـسـبـونـ نـصـرـاـ لـلـدـيـنـ فـىـ مـجـالـ الـحـرـيـةـ لـيـسـوـاـ أـهـلـاـ لـقـيـادـةـ ،  
وـلـاـ أـحـقـاءـ بـالـبـقـاءـ فـىـ أـىـ مـيـدـاـنـ ..

وـأـذـكـرـ أـنـىـ قـاـبـلـتـ أـسـتـاذـىـ الـكـبـيرـ الـإـمـامـ حـسـنـ الـبـنـاـ ، لـأـشـكـوـ إـلـيـهـ مـوـقـفـ الـمـتـدـيـنـ  
عـاـمـةـ مـنـ قـضـيـةـ الـحـرـيـاتـ الـدـسـتـورـيـةـ ، وـكـانـ يـصـحـبـنـىـ أـسـتـاذـ خـالـدـ مـحـمـدـ خـالـدـ ،  
وـبـوـصـفـىـ عـضـوـاـ مـؤـسـسـاـ فـىـ جـمـاعـةـ الـإـخـوـانـ فـقـدـ تـحـدـثـ يـوـمـهـاـ كـثـيرـاـ ، وـكـانـ حـوارـ  
عـاـصـفـ قـلـتـ فـيـهـ : إـنـ الـمـرـكـزـ الـعـامـ لـاـ يـدـفـعـ عـنـ دـسـتـورـ كـمـاـ يـنـبـغـىـ ، وـتـمـادـىـ بـىـ الغـضـبـ  
فـقـلـتـ : كـأـنـىـ أـسـمـعـ جـرـسـ الـمـلـكـيـةـ يـدـقـ هـنـاـ !!

وكان الإمام الشهيد أحلم مني وأرزن ، فرد اتهامى بلطف ، وأصدر أمره إلى مجلة الإخوان أن تنشرلى ما أكتب ولو كان ضد سياسة الجماعة !!

ويرحم الله الرجل الكبير ! إن الملكية الخائنة أهدرت دمه ، واستباحت جماعته ..

ومضى الاستبداد فى طريقه ، فإذا حريق هائل يلتهم بقايا الإيمان والرجلة فى البلد المخرب ، ولم يعرف المتدينون - إلا بعد تجارب طاحنة - أن الحرية مهاد الآباء والخلق واليقين والإخلاص .. إنى بوحى دينى وتجربتى أرفض الاستبداد السياسى جملة وتفصيلاً ، وأقر أن المذاهب الإلحادية ما تبلغ هدفها إلا فى غياب الدساتير الصحيحة وتزييف إرادات الأم ، وتمكين نفر من الفراعنة ليعبثوا بالحياة العامة كما يشتهون !!

وأقر كذلك أن المنتسبين إلى الدين حين يجهلون هذه الحقائق ، فهم أعداء أنفسهم وأعداء دينهم على سواء ، وأن مقاليد الأمور فى أيديهم لن تكون إلا ظلمات بعضها فوق بعض .

إن رجل الشارع فى القاهرة أو بغداد أو دمشق لا يجوز أن يكون أقل استمتاعاً بالحرية أو مناقشة للحكم من أخيه فى لندن أو باريس أو واشنطن .

و يوم يكون المسلم أدنى من غيره فلا كرامة للدين الذى يعتنقه !!

وهنا يرد سؤال مهم : قد قررت نوع الحكم الذى يجب أن يسود كل بلد إسلامى ، والمعروف أن المسلمين اليوم بين ربع العالم أو خمسه ، فما الرباط السياسى الذى يجمع بينهم ، ويضم شتاهم ؟

إن هذا السؤال يقفنا حتماً أمام طبيعة الرسالة الإسلامية ، والأخوة التى تجمع بين أبنائها على اختلاف العروق والألوان ، وهو سؤال يقفنا أمام تاريخ طويل للخلافة الإسلامية فى صورها الوسيمة والدميمة على سواء !

ظاهر من طبيعة الإسلام أنه دعوة متحركة تعرض نفسها على أي إنسان حيث كان ، والقرآن الكريم إنسانى النزعة والوجهة يتعامل مع الفكر المجرد ، ويتخطى العصبيات والجنسيات ليستقر في القلوب وحدها .

ومن ثم فإن جهاز الحكم فيه ، أو منصب الخلافة باسمه يقوم على هذه الأسس :

(أ) نشر الدعوة الإسلامية في كل مكان.

(ب) رد الشبهات التي قد تشير لها الدعوات المضادة.

(ج) تحشيد قوى المؤمنين ضد أي عدو وان يجئ من هنا أو هناك.

(د) الإسهام مع قوى الخير في العالم على رفع مكانة الإنسان عامة.

ودعامة ذلك كله أن تكون الأمة الإسلامية نفسها صادقة لدينها في الداخل والخارج ..

ولا نستطيع الزعم بأن الخلافة الإسلامية في القرون الغابرة نهضت على هذه الأسس ..

وال المسلمين مجمعون على وصف دولة الخلافة الأولى بأنها خلافة راشدة ! هل يعني ذلك أن وصف الرشد حكر على الأربعة الأوائل ، وأن الخلفاء بعد ذلك ليسوا - على الإجمال - أهلاً له ؟

الواقع أن جمهور المسلمين كاره ، أو ضائق ، أو منكر ، أو منحرف عن أغلب الخلفاء الذين ولوا أمره !!

وقد سمي عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد الخامس وهو من الأمويين وقد تجد سادساً أو سابعاً من العباسيين أو العثمانيين .

أى أن الراشدين يعدون على الأصابع خلال أربعة عشر قرناً ، أما جمهور الخلفاء

بعد ذلك فهم حكام حظ الدين منهم قليل ، وأنصبتهم من العلم والدعوة تافهة ، ومع ذلك فقد حكموا باسم الإسلام ، وحاولوا تكميل نقصهم بطرق شتى من الولاء له وتبني شعائره وشرائعه ودعم سلطانهم به . . .

والخلافة نيابة عن رسول الله ﷺ في رعاية مصالح الأمة الدينية والمدنية ، أي أنها أبوبة روحية وثقافية وسياسية لل المسلمين كافة تعبد الله بتعهد خلقه والسهر على شئونهم ، ومن هنا كان الإمام العادل أول السبعة الذين يظلمهم الله ، يوم لا ظل إلا ظله . . .

وقد تقلصت هذه الحقيقة على مر العصور بحسب متفاوتة ، وتحول الخلفاء إلى أناس يختلون الدنيا بالدين . . .

ولعل السبب الأول هو نظام الوراثة الذي جعل الأهواء البشرية تهزم القيم الدينية . .

فالمفروض أن يختار الناس - بطريقة ما - أفضل رجل فيهم ليكون قائدهم وإمامهم ، بيد أن هذا الفرض استبعد ، لتقذف الوراثة برجل من بنى أممية ، أو بنى العباس ! فيفترض نفسه على الألوف المؤلفة في أقطار الأرض الواسعة ، سيداً مطاعاً ، وإماماً مهيباً !!

والمواهب الإنسانية لم تأخذ هذا الحظ في البروز والتألق ، فقد كان أبو الطيب شاعراً مفلقاً ، ولم يرث ذلك عن أبيه أو أمه ولم يورث منه الأدبى ابنًا له ، ولكن قانون الخلافة ألزم الجماهير بتحية الإعجاب تقدم لابن المتنبي العاجز ، أو لابن أبي العلاء الذي لم يولد !!

ولولا التاريخ العلمي للإسلام ، ولو لا جهود الأتقياء من فقهائه ودعاته ومربييه ومجاهديه المشهورين والمغمورين لغربت شمسه من زمن بعيد . .

وكان آخر الخلفاء - أو السلاطين - من آل عثمان شبحاً محقوراً لهذا النظام الجائر ، فلا عجب إذا رمى بالخلافة في البحر قائد متفاهم مع الصليبية العالمية التي طال تربيتها وبلغت آخر الأمر مرادها ..

إن المخنة التي أصابت الإسلام بفساد أوضاعه السياسية طويلة الذيل ، مستطيرة الشر! ولا يفكر مؤمن عاقل في إعادة الخلافة الإسلامية بصورتها المستقبحة التي ظهرت بها ..

ولكن التفكير يشغل ألف المؤمنين في ضرورة عودة الخلافة على نهجها الراشد الأول ، وكلما مر يوم شعر المسلمون بفقرهم إلى قيادة عامة تلم شملهم في المشارق والمغارب ، ذلك أن للقوى المعادية قيادات عامة ترسم خططها بخبيث ، وتضرب بعضهم البعض دون هوادة ، مما يجوز بقاوهم على هذه الفرقة القاتلة ..

لنبحث إذن كيف تكون لل المسلمين وحدة شاملة وخلافة عظمى ..؟

تساءلت : ألا يمكن تحوير ودعم المؤتمر الإسلامي لتحقيق هذه الغاية؟ إن المؤتمر يتكون الآن من أربعين دولة مسلمة ، بيد أن المسلمين أوسع دائرة من هذه الدول الأربعين ، إن القلة المسلمة في الهند أربى من عشر دول عربية .

ومعنى هذا أنه لابد من تمثيل طوائف المسلمين في العالم كله وهم موزعون على نحو أربعين دولة أخرى كما بينا سابقاً ..

فإذا أعيد تشكيل المؤتمر ليكون لكل تجمع إسلامي صوت ، وإذا كان رأى الكثرة ملزماً - من النصف أو بالثلثين - وإذا اختير أمين عام تتجسد فيه أعمال المسلمين وألامهم ، فإنه يمكن أن يأخذ هذا الأمين وضع الخليفة ..

ولابد من مواجهة قضايا عالمية ومحليّة تعرّض مقررات هذا المؤتمر ولن يكون الطريق أمامه معبداً ، ولابد من الإقدام والتصدي للكارهين !!

وَثَمَةُ اقتراح ثانٌ .. أَلَا يَكُن تحويل الدُّول والدُّولَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ إِلَى «ولايات مُتَّحِدةٍ إِسْلَامِيَّةٍ» عَلَى غَرَارِ النَّظَامِ الْأَمْرِيَّكِيِّ، وَيَكُونُ الرَّئِيسُ الْمُنْتَخَبُ مِنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي إِفْرِيقِيَا وَآسِيَا هُوَ الْإِمَامُ الْمُنْشُودُ، أَوْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ..

وَهُنَا لَابْدُ مِنْ مُصَارِحةِ الْأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَوْطَنُ فِيهَا الْفَسَادُ السِّيَاسِيُّ دَهْرًا .. إِنْ تَزْوِيرُ الْإِنْتِخَابَاتِ خِيَانَةٌ عَظِيمَةٌ، وَإِذَا كَنَا قَدْ رَفَضْنَا تَوْارِثَ الْخِلَافَةِ لِأَنَّهُ يَأْتِي بِأَدْمَغَةٍ تَافِهَةٍ، فَإِنَّ التَّزْوِيرَ الَّذِي أَتَقْنَهُ بَعْضُ الْحَكَامِ لَنْ يَأْتِي إِلَّا بِبَعْضِ الْفَتَاكِ وَالشَّطَارِ وَهُوَاةِ الْفَرْعَوْنَةِ، وَوُجُودُ هُؤُلَاءِ طَاعُونَ يَغْتَالُ الْكَفَايَاتِ وَالْأَمَانَاتِ ..

إِنْ اِنْتِخَابُ خَلِيفَةٍ يَجْبُ أَنْ تَوْفِرَ لَهُ جَمِيعُ أَسْبَابِ الْحِيَطَةِ الْدِينِيَّةِ وَالْخُلُقِيَّةِ، وَأَنْ يَكُونَ آيَةً فِي الْشُّرُفِ وَالْتَّجَرْدِ ..

وَاقْتَرَاحٌ أَخْرَى! هَلْ يَمْكُنُ أَنْ يَجْمِعَ بَيْنَ أَسْرَةِ الدُّولِ الإِسْلَامِيَّةِ وَالْأَقْلَيَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ نَظَامٌ يُشَبِّهُ «الْإِتَّحَادِ الْكُونْفِدِرَالِيِّ» تَبَقِّي فِيهِ الْمَعَالِمُ الْمُخْلِيَّةِ، وَيَجْمِعُ الْمُسْلِمِينَ هَدْفًا وَاحِدًا فِي الْمَيْدَانِ الدُّولِيِّ؟

الْأَمْرُ يَتَطَلَّبُ عَلَى آيَةٍ حَالٍ تَعَاوُنُ الْعُلَمَاءِ بِالْفَقْهِ الإِسْلَامِيِّ وَالْخُبَرَاءِ بِالْقَانُونِ الدُّولِيِّ حَتَّى يَمْكُنُ عَلاجُ قَضَائِيَا كَثِيرَةٍ سُوفَ تَتَطَلَّبُ الْحَلُولُ ..

عَلَى أَنْ تَغْيِيرَ الْأَوْضَاعِ السِّيَاسِيَّةِ لِلْعَالَمِ الإِسْلَامِيِّ لَا يَتَمَّ أَبْدًا قَبْلَ أَنْ تَسْبِقَهُ تَغْيِيرَاتٌ فَكْرِيَّةٌ وَنُفْسِيَّةٌ عَمِيقَةٌ ..

فَالْحَاكِمُ الْفَرِدُ إِذَا اطْمَأَنَ إِلَى أَنَّ أَظَافِرَهُ لَنْ تَقْلُمُ مَضِيَّ فِي بَطْشِهِ لَا يَخْشِيُ أَحَدًا .. وَالْمُسْتَبِدُ غَالِبًا مِنْ أَجْبَنِ النَّاسِ، وَمَا يَغْرِيَهُ بِالظُّلْمِ إِلَّا أَمْنُ الْعِقَابِ، وَلَوْ كَانَ فِي بَيْتِهِ يَقُولُ قَائِلَهَا:

إِذَا الْمَلِكُ الْجَبَارُ صَعَرَ خَدَهُ      مَشَيْنَا إِلَيْهِ بِالسَّيُوفِ نَعَاتِهِ !

لفكَّر سبعين مرة قبل أن يضيّم أحداً ..

وقد استوردنا شكل النظام الديمقراطي في بعض بلادنا فإذا هوى الأنفس وخراب الأُخلاق يحول أجهزة الشورى إلى أبواب ملق ودعائية لفرد طائش .

وفي أيام يفاقتى كنت أرى الجماهير أحمسى أنفًا ، وأبين شرفاً في بقاع كثيرة ، ولكن يظهر أن الخطة التي وضعت لتدويخ المسلمين أتت ثمارها المرة .. !!

وهذا ارتکاس لا يدعو إلى يأس ، بل يدعو إلى مضاعفة الجهد لإنقاذ أمة تحمل أمجد رسالة عرفها العالم ، إنقاذها محلياً وعالمياً .

إن هناك يقظة إسلامية حسنة ، غير أن أمراضنا الموروثة لاتزال تهبط بنا ، والأمراض الوافدة لاتزال تهاجمنا ، والأمر يحتاج إلى دعاء<sup>(1)</sup> علماء ، وساستة أتقياء ، وحصيلتنا من هذه الفئات شحيحة بالغة الشح ..

قد يكون العزاء ، أو يكون الرجاء في أننا أصبنا في تشخيص علنا ، والتشخيص الصحيح خطوة جيدة في طريق العافية! لعل القرن المُقبل يكون خطوة فسيحة إلى ما نصبو ، والأمل في جانب الله يحلو .. لكن لا أمل بدون عمل !

\*\*\*

---

(1) هناك مشتغلون بالعلم الديني يرون أن تجارة الرقيق عمل مشروع ، وأن إنشاء الدساتير بدعة مستغربة ، وأن الدعاية للإسلام باللطف لا بالعنف علامة ضعف ، وأن سماع الموسيقى فاحشة ، وأن دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس خرافة .. إلخ .

ماذا يستفيد الإسلام من بقاء هذه العصابة تحمل أسفارها؟

## السوأة الكبرى

الطبيعة البشرية واحدة في القارات المزدحمة بسكانها ، وعلى امتداد الأمس واليوم والغد .. والناس يذوقون آثار هذه الطبيعة حلوها ومرها وقلما تختلف أحکامهم عليها ، فالظلم مستقبح والعدل مستحسن والدناة عيب والشرف محمد ..

ومع ذلك فإن الذين يحبون العوج ويكرهون الاستقامة كثيرون وبلغ من كثرتهم أن ذلك كاد يعد طبعاً للناس ، فإن طغيان الظلمة سود تاريخ العالم :

وفي ذلك يقول المتنبي :

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانَ  
وَعَنَاهُمْ مِنْ أَمْرِهِ مَا عَنَانَا

ثم يقول :

كُلَّمَا أَبَتَ الزَّمَانُ قَنَاءً  
رَكَبَ الْمَرْءُ لِلْقَنَاءِ سِنَانَ

والواقع أنه وجد كثيرون لا يرون حرجاً من السطوة على كدح العاملين واقتناصه سحتاً ، وكثيرون يرون راحتهم في الخلاص من خصومهم ، والإجهاز على حياتهم ، وكثيرون يرون لذة المخالسة في الاستيلاء على عرض حرام أولى من الارتباط به عن طريق الحلال الحلو والبارد العذب ..

والغريب أن الصور الجزئية لهذه الجرائم يمكن أن تضبط وتحاسب ، أما الصور الكبرى فإن الإفلات فيها بالغنم الحرام ميسور وشائع ..

وقد قرأت لأحد الصحافيين هذه الكلمات «اللصوص يسرقون ويهربون ، بعضهم يدركه العقاب والآخرون يفرون بما سرقوا ونهبوا دون أن يمسهم أذى ! فالذى يسرق الرغيف يدخل السجن ، والذى يسرق الفرن لا يدخل السجن ؛ لأن سارق الرغيف لص

ضعيف ، أما سارق الفرن فهو لص قادر يتعاون مع عصابات قادرة ، ويجد من الأموال التي سرقها ما يقدرها على تدوين العدالة ، فهو يوكل أحسن المحامين عنه ، وبين براعة الدفاع وعناء القضاء تذهب الحقيقة» .

إفلات مجرمين من يد العدالة غير مستغرب ، ولكن المستغرب وجود لصوص من طراز آخر ، لصوص شرفاء جداً ، لا يتهمنون ، ولا يقدمون للعدالة أبداً ، لصوص لهم مناصب مهيبة وألقاب طنانة وكلمات نافذة . !! سرقوا شعوبهم جهراً ونمث لهم ثروات طائلة ، واحتسبت الألسن في الحلوق بما تقدر أن توجه لهم لفظاً !!! والسرقات من هذا النوع تجنيء عرضاً ، أو تجنيء تابعة للاستيلاء على السلطة ، والاستمكان من مقاليد الأمور . .

واغتصاب الحكم لشهوة عارمة شئ غير تولى الحكم باسم الله ورضا الأمة ، الأول فجور والثاني تقوى .

ويظهر أن الأتقياء في التاريخ السياسي للأمم كانوا أندر من الماء في الصحراء . . وإن الذين غلبوا على مصاير الأمم كانوا قطاع طريق مهرة في سرقة الأمجاد والكافيات ، وبناء الجاه والسطوة والأبهة على أنقاض المستذلين والضائعين!

وقد حكى القرآن أن واحداً من أولئك الفراعنة جادل إبراهيم في ربه ، وزعم أنه له سلطاناً يضارع سلطان الله في أرضه!! أليس قادراً أن يعدم من يشاء ويستبقى من يشاء ؟!

كان المؤلوف في سلطات هؤلاء الحكام أن يعلن أحدهم الحرب ، ويسوق إلى ميدانها الألوف المؤلفة من الناس كي يحققوا له مجدًا ويكتبوا بدمائهم سجل عظمته . .

وكان المؤلوف أن تجبي ثمرات الأرض لشخصه الكريم ضرائب مباشرة وغير مباشرة لتلبى أولاً حاجاته وحاجات أتباعه ، ثم يرمي الفتات الباقي للمصالح العامة . .

وقد سبقتنا أوروبا إلى تقليم أظافر حكامها ، فقتلت بعضهم في ثورات حانقة ،  
ووضعت دساتير دقيقة لضبط مسالك الباقيين ، حتى صار الحكم هناك خدمة عامة يختار  
لها الأكفاء ، ويراقب من خلال أجهزة يقظة ، ويطرد ولا كرامة إن بدا منه ما يريب ..

أما الشرق الإسلامي فإن الفساد السياسي بقى في أغلب ربوعه حتى القرن الرابع  
عشر للهجرة ..

إنه متأخر بضعة قرون في طريق التقدم العالمي ، ولا يزال اغتصاب الحكم فيه  
سهلاً ، ولا يزال الحكم وتسلق الحاكمين أخصر طريق للمال والجاه ..

وما يشير الدهشة هو الفرق الكبير بين تعاليم الإسلام وأحوال المسلمين ..

وما يثير الدهشة أكثر وأكثر هو موقف المستغلين بالعلوم الدينية وفقه الشريعة .. كان  
هؤلاء كونوا بطريقة خاصة ليكونوا حواشى للحاكمين !

لقد فزعت وأنا أرى كباراً منهم يصفق بيديه - مثل صبي طائش - تكريماً أو إرضاء  
لأحد الحكام !!

إننى أعلم أنه من أجل ذلك اختيار! لكن الهبوط ما ينبغي أن يبلغ هذا الدرك ولو  
لحماية المظاهر . والسقوط الخلقي آفة بعض رجال الدين ، ولكننى أظن ذلك سبباً ثانياً  
لفساد الحكم في العالم الإسلامي . إن السبب الأول هو خلل التفكير الفقهي عند  
الجهم الغفير من المتكلمين في الفقه !

سمعت جداً بين أناس يتحدثون عن حكم لمس المرأة ولمس إحدى السوتين ،  
والأقوال المتضاربة في هذه القضية !

فقلت لهم : هذه أحكام تقرر في خفوت ، ويدرك الخلاف فيها بكثير من التجاوز ،  
وأمرها لا يستحق هذا الحماس ولا ذلك العناد !!

فنظروا إلى مستنكرين! فقلت لكبيرهم : أتعرف شيئاً عن السوء الكبرى في الإسلام؟ وجاء الرد بسرعة ، أى سوء؟ قلت : ضياع الإسلام في الأندلس وذهب ريحه وانتهاء دولته ومحو حضارته! هل درستم أسباب ذلك ، وأخذتم الحيطه حتى لا تكرر المأساة؟

إنسى أدهش عندما يجيئنى متقدعاً يسألنى : هل يقضى المأمور الركعة إذا لم يقرأ الفاتحة ولكنه أدرك الإمام راكعاً؟ لقد قلت لهذا السائل : الجمhour على أنه لا يقضى ! فقال بسماعة : لا ، يجب أن يقضى والسنة الصحيحة توجب ذلك! قلت له : ما دام يؤثر الرأى الآخر فليقضى الركعة ! فأراد أن ينشئ معركة علمية في هذه القضية فقلت له بصبر نافذ : إن تعلقكم بهذه الخلافات لا مساغ له! أريد أن أسألك :

التناصر بين المسلمين واجب ، فكيف ينصر المسلم في إفريقيا أخيه في آسيا ، هل فكرتم في ذلك ، واكتشفتم وسيلة مادية أو أدبية ؟

إن الحكومات تعالج شئوناً عادلة وعبادية خطيرة ، فهل فكرتم في طريقة لتصحها ، وعرض وجوه الرأى عليها ، وإلزامها بالحق إن هي رفضته ، وتأمين معارضيها إذا فكر مستبد في إيدائهم .

إن تخلف المسلمين شائن في دنيا الناس فهل فكرتم في أسلوب يكشف عنهم هذا العار؟ حتى إذا تقدموا صناعياً وحضارياً أمكنهم أن يدفعوا عن عقائدهم ، ويحموا مساجدهم من نظم تريد إغلاقها ، ومنع اسم الله أن يذكر فيها ...؟

قال لي المتفقه المغفل : هذه سياسة وأنا أكلمك في الفقه!

قلت : أنا أكلمك في الفقه ، وأنت وأمثالك صرعي سياسات محقورة شغلت الجماهير بالخلافات الصغيرة ؛ حتى يمضى الفجار في طريقهم دون عقبات ..

إن الاستبداد السياسي استطاع على تراخي الأيام أن يحذف أبواباً مهمة من قسم «المعاملات» في فقها الضخم ! أو أن يجعل حقائقها ضامرة مهزولة ؛ لأن الكلام فيها مرهوب النتائج ..

ومن ثم طال الحديث في أمور هينة وكثرت فيها التفريعات والأخيلة البعيدة ، على حين صمت الفقه في الأمور الجلل .

وتم البت في قضايا المسلمين العظمى بين جماعات من الفتاك يذكرون أنفسهم وأتباعهم كثيراً ولا يذكرون الله إلا قليلاً ..

وقد وقعت فواجع في بيات الحكم يندى لها الجبين ، وأهيل عليها التراب دون تعليق ، ففي اليمن قتل أمير - أو تأمر على قتل - تسعة من إخوانه حتى تخلص إماماة المسلمين للأخ القاتل وحده !!

ومطلوب من الفقه الإسلامي أن يشغل بمكان وضع اليدين في الصلاة ! أو برفعهما قبل الركوع ! وهي أحكام تتساوى فيها وجهات النظر ، ولا يأثم مسلم يجنب فيها إلى السلب أو الإيجاب ..

نعم مطلوب منه إفاضة الكلام في هذه القضايا وتكوين عصابات من الرعاع تشغل المصلين بهذه الأحكام ، وتشير بينهم الفتنة !!

أما سياسة الحكم والمال فعلاقة الفقه بها مقطوعة ، وحسب نفر من العلماء المعاصرين أن يرددوا فيها أقوالاً سقيمة ، قررها الجبناء الهاربون أو المفكرون القاصرون ..

كانت النتيجة المريرة أن حكم المسلمين رجال لا يؤمنون على شيء ، ولا تحركهم إلا غرائز طفولية من جنون العظمة والاستئثار بالسلطة ..

ولم تكن القوة المعادية للإسلام غافلة ! ومتى غفلت ؟ إنها بين الحين والحين تنفذ

من هذه الثغرة فى مجتمعنا لتهلك الحرف والنسل ، وهى تفعل ذلك بآيدينا نحن لا  
بيد زيد أو عمرو !

ومن أعصار طويلة وهذه الفوضى الفكرية تسود العالم الإسلامى وتعوج بخطاه عن  
كل هدف شريف فإذا قضايا كبيرة تموت مكانها لا يكترث بها أحد ، وإذا أمور تواافه  
يهيج لها الخاصة والعامة . . . .

ومضت سنة الله فى أمتنا كما مضت فى كل مجتمع مختل ، فتدحرجنا من مكان  
الصدارة إلى ذنب القافلة الإنسانية ، وأسألنا إلى ديننا بقدر ما أسألنا إلى أنفسنا . .  
وجاءت ساعات الصحو والمحاسبة وتأنيب الضمير ! وبدأنا نغضب لما أصابنا ونأسف  
لما ضاع منا ، فكيف العمل ؟

البعض يريد السير فى ذات الطريق الذى انتهى به إلى الذل . . البعض يرفض  
ب Kimber غريب أن يعرف لماذا تقدم غيرنا . . البعض يعجز عن فهم الفطرة الإنسانية ويظن  
الدين حرباً عليها !

\*\*\*

## ملزمة أو معلمة

لقد أخطئنا خلال القرون الأخيرة أخطاء جسيمة دفعنا ثمنها تهويده وتنصيره وتجييس أقطار واسعة من عالمنا العريض ، ومطلوب منا الآن أن ندفع أكثر ، ومع هذا كله فإن ناساً يصطنعون التدين يشغلون أنفسهم بحكايات من الفقه الظاهري والخارجي والمعتزل والسلفي والخلفي تتصل بشئون ما وراء المادة أو بشئون تعبدية خفيفة الوزن ..

أما ما يمس الإنسان ومصاير الجماهير ومستوى الحياة العامة ففكيرهم فيه طفولي عليل ! وماذا تنتظر من متحدث عن الإسلام يقول : **أجمع السلف والخلف على أن الشورى لا تقييد الحاكم !!** لحساب من يقال هذا اللغو السخيف ؟

أهذا هو التفسير المجمع عليه لقوله تعالى : **﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾** ؟

ونشأ عن ذلك وجود حكام قهروا الأم وأوردوها الح توف ؛ لأن الفكر الديني لم يستطع إنشاء الكواكب التي تشدhem إلى الوراء ، ما استطاع إيجادها ولا استيرادها !!

وقد تقاتل المسلمون في إيران والعراق فانظر ماذا يقول الأستاذ مصطفى أمين في ذلك القتال :

«لا أستبعد أن يحصل الغرب وروسيا واليابان على بترول إيران والعراق مجاناً لمدة عشر سنوات أو تزيد! فالتدمير والخراب والدمار الذي حدث في هذه البلاد يحتاج إلى مئات البلايين من الدولارات؛ لإعادة معامل البترول التي دمرت وأنابيب البترول التي خربت وعشرات المدن التي تحولت إلى أنقاض ، والمصانع التي تحطمت والعمارات التي تحولت إلى أكواخ ، وسوف تستعين إيران والعراق بالدول الكبرى وخبرائها وألاتها ، وسوف تشتري منها أسلحة جديدة وطائرات جديدة وبوارج حربية جديدة بدل ما ضاع في المعارك الطاحنة ! فلم تكسب الدولتان الشقيقتان إلا الخسارة ، وإنما قتل آلاف

الأبراء من النساء والأطفال ، وإلا كراهية وحقداً وبغضاً ستعيش مائة سنة قادمة على الأقل ، وإلا ضياع البلايين والإفلاس التام» !

«كل هذا لأن مصير هذه الشعوب في يد بضعة أفراد مغامرين يعلنون الحرب وقتما يشاؤن ويسوقون بلادهم إلى الخراب كما خطر ببالهم أن يحصلوا على مجد مزيف ، أو أن يبدوا للعالم في صورة الغزاوة الفاتحين . ولو كانت في هذه البلاد برمذانات حقيقة منتخبة انتخاباً حراً ومناقشات ديموقراطية يتداول فيها المختلفون الرأي بدل تبادل إطلاق الرصاص ، ولو كانت المنابر فيها قامت مقام المشانق ، لما سمحت الشعوب بمثل هذه المغامرات المجنونة التي تدفع الشعوب ثمنها من قوتها وحريتها وحياتها في غياب الحرية والديمقراطية والرأي الآخر . إننا في هذه المنطقة يجب أن نتعلم كيف نختلف . فنحترم من يخالفنا أو يعارضنا كما نحترم أنفسنا ، لا أن نبادر بإلقاء تهم الخيانة على كل من لا يتفق معنا في رأي أو يختلف معنا في طريق» .

الإسلام يمنحك حرية الرأي ، ولكنه لا يسمح لفريق منا أن يفرض إرادته على فريق ، يفرض زعامته على أمة على الرغم منها ، أو يحول المسلمين إلى أغنام يسوقهم أمامه ، وكأنه الراعي الوحيد . شرط الإسلام الأكبر أن يكون المسلمون أحراراً ولا مكان فيهم للطغاة ولا للعبيد ، فلا تزجووا بالإسلام في خلافاتكم .. وحاولوا أن ترتفعوا إليه ، بدل أن تنزلوه إليكم ! ويل للذين ينتزعون الرأيات العظيمة ويحاولون أن يمسحوا فيها أحذيتهم .

الحكم الفردي بطبيعته يبغض أولى الكفایات الكبيرة ، ويتجهم لمرأهم ، ويغلق الأبواب في وجوههم !!

وأى فرعون من هؤلاء الذين تصدروا وحكموا تملكه غيره المرأة إذا لمح ذكاء يتوجه أو همة تتقى .. إنه على عجل يحاول إطفاء البريق وعرقلة المسير ..

وليس يعنيه أبداً أن تحرم الأمة الانتفاع من موهبـ بـنـيهـاـ أو مـسـابـقـةـ غـيرـهـاـ فـىـ أـىـ مـجـالـ مـادـىـ أوـ أـدـبـىـ فإنـ هـمـهـ الأـوـحـدـ أـنـ يـنـفـرـدـ بـالـمـجـدـ ،ـ وـلـيـذـهـ بـمـاـ عـدـاهـ إـلـىـ الـجـهـيـمـ ..ـ

أـمـامـ ذـوـ الـأـمـتـيـازـ وـالـمـقـدـرـةـ فـرـصـةـ وـاحـدـةـ لـيـعـيـشـواـ ،ـ هـىـ أـنـ يـجـثـواـ فـىـ مـحـارـبـ الـوـثـنـيـةـ

الـسـيـاسـيـةـ ،ـ وـيـحرـقـواـ الـبـخـورـ لـلـحـاـكـمـ بـأـمـرـهـ ،ـ وـعـنـدـئـذـ يـؤـذـنـ لـهـمـ بـالـتـحـرـكـ فـىـ حـدـودـ مـاـ يـشـاءـ ..ـ

وقد رأيت في تجاري و خلال دراستي للتاريخ أمتى أن عبقيات كثيرة ولدت في ظلام هذه الأوضاع فليس كل ذي موهبة يصلح ذنباً لصنم كبير ، بل إن أكثر الموهب تحتاج للتشجيع أو للتدليل كى تنتعش وتنمو . ورب عبقرى كبا أول عمره ثم أسعفته الأيدي الحانية فنهض ومضى في طريقه ؛ ليتحول مع الأيام إلى قمة مرموقة .. إن العبقيات - في أغلب الأحيان - تبدأ نبتاً رقيقاً يمكن أن تدوسه قدم غليظة فتتأتى عليه ، ولكنه إذا وجد السقيا والرعاية نما وأزهر وأثمر .

وليت شعري ما قيمة الأم إذا قتلت أنفس معادنها ، وتولى الرعاع وحدهم قيادها ؟ في أى ميدان علمي أو اقتصادي أو عسكري وسياسي يمكن أن تنجح .. ؟

وإذا كان الحاسدون والحاقدون يستمكرون من اقتراف هذه الجرائم فماذا ننتظر ؟

سمعت رجلاً يقول : إن الله قسم الحسد اثنى عشر جزءاً ، خص العرب بأحد عشر وقسم الجزء الباقي على أهل الأرض فهو يسرح بينهم سحابة النهار ، ثم يعود لينام في أرض العرب بقية الليل !!

الحق أني فزعت من هذا المثل الرهيب ! ولما نظرت فيه وجدت أن العيب ليس في جماهير العرب ولكنه في رؤسائهم وحكامهم من عهد مبكر ، أى أن الاستبداد السياسي هو الذي يتحمل وزر القتل العمد لعشرات ومئات من المفكرين والعظماء الذين أهيل عليهم التراب ليستمتع بالشهرة فرعون صغير هنا وهناك ..

ولايزال الأولاد يدرسون أسماء الأشخاص الذين أبرزهم التاريخ السياسي ، ومن استطاع لسبب أو لآخر أن يحيا في حواشיהם !!

أما كبار العلماء فقد رأيت في عصرنا هذا عدداً منهم يموت في صمت أو في غربة ووحشة فكم عدد من هلكوا خلال القرون الماضية؟ ألا يفكر في ذلك من يبحثون عن سر تخلف المسلمين؟ وعن سبب تفوق غيرهم؟

إن الأمجاد المعنوية تنتقل بين الأكواخ والقصور ، وبين السود والصفر والبيض ، بين الناس على اختلاف أعراقهم وأحوالهم ، وليس حكراً على سلالة معينة !

وقد اختار الله إبراهيم لإماماة الناس بعد ما نجح في امتحانات صعبة ، فلما فكر أن ترث ذريته الإمامة من بعده ، رفض فكره؛ لأنهم قد يسقطون في الامتحانات التي نجح هو فيها ..

والنظام الصالح هو الذي يعطى حق الحياة والنمو للجديرين بذلك ، والذي يشد إلى أسفل كل من يريدون الصعود بالتزوير والأثرة ، والذي يدفع بالدناة معترضي الكفايات من أى طبقة !!

يقول الأستاذ مصطفى أمين:

«في بلاد الدنيا كلها عندما ينجح إنسان تنهال عليه الورود والرياحين ، أما في منطقة الشرق الأوسط فإن فيها وباء عربياً اسمه وباء محاربة الناجحين والقضاء على الناجين وتحطيم المتفوقين .

لانكاد نسمع عن رجل نجح حتى تنهال عليه بالطوب ، وهذه طريقتنا في إطلاق المدافع لتحية الأبطال الفاتحين . فإذا لم يكن الرجل الناجح عند حسن ظننا وانهار تحت وابل الطوب ، أسرعنا نهدمه بالمعاول فإذا رأينا رأساً مرفوعاً طالبنا بقطعه ، وإذا شاهدنا شركة ناجحة أبلغنا ضدها الرقابة الإدارية ، وإذا ألغيت الرقابة الإدارية استنجدنا بالنيابة الإدارية !

البعض منا يعتبر النجاح خيانة عظمى يجب شنق مرتكبها المجرم الأثيم . أما الإنسان الفاشل فهو وحده الذى يستحق احترامنا ، لو لا أنه سرق لما نجح ! لو لا أنه احتلس لما اغتنى ! لو لا أنه خالف كل مبادئ الأخلاق لما تقدم كل الصفوف . عقلية العبيد هذه يجب أن نقاومها فى أنفسنا . ويجب أن نعتبر كل كفأة فى بلادنا قلعة لابد أن نحميها من الاقتحام بالبلاغات الكاذبة ومن الشكاوى الوهمية ومن الاتهامات المزيفة .

أسمع عن كفائيات فى بلادى تحارب ، وتقام العقبات فى طريقها ، كأن حزب الفاشلين يريد كل كفاية والقضاء على كل عبقرية ، وتحطيم كل نجاح . والفاشلون عادة جماعة من الفارغين الذين يستطيعون أن يتفرغوا ٢٤ ساعة كل ٢٤ ساعة لتدبير المكائد ، ولإعداد الخناجر التى يطعنون بها ظهور الناجحين المتفرغين لعملهم ، والذين لا وقت عندهم للدسائس والمؤامرات ، ووضع الخطط للخلاص من الكفائيات !

أذكر يوماً أنه صدر قرار بنقل المهندس طه زكي من شركة كيما إلى شركة أخرى بلا ذنب ولا جريمة سوى أن موظفاً كبيراً لم يستطعه ! وحرمت كيما من رئيس كفاء ، ولم تثبت الأمم المتحدة أن اختارته خبيئاً بها ثم أصبح بعد ذلك وزيراً للصناعة ! وقد كان من الممكن أن يقضى القرار الخاطئ نتيجة الدسائس والمؤامرات على موظف كفاء ، وأعرف أن طبيباً أنشأ مركزاً كبيراً من أكبر مراكز العلاج فى الشرق الأوسط ، وأنعمت عليه الحكومة الفرنسية بوسام اللجيون دونير ، وأقام له الوزير المختص حفلة تكريم ، وما كاد ينتهى الخطباء من إلقاء خطبهم فى تكريم الطبيب المحتفل به حتى تقدمت ضده البلاغات ، وبدأت التحقيقات ! لو لا أن المسكين نجح فى عمله وتفوق فيه ونال وساماً من دولة أجنبية وأقيمت له حفلة تكريم لما انهالت ضده البلاغات .

واجبنا أن نحمى كل كفاية فى بلادنا ، وأن نحافظ عليها ، وأن نعلم أن الكفاية

لا تحتاج إلى المنصب إنما المنصب هو الذي يحتاج إلى الكفاية .. وأن كل الذين حاربهم الفاشلون وأضطروا أن يخرجوا من مناصبهم قرفاً ، أو زهداً ، أو ضيقاً وجدوا خارج هذه المناصب أخرى تدر عليهم أضعاف مرتباتهم ، إننا نحتاج إلى كل كفء في بلادنا أكثر مما يحتاج هو إلينا ..

والذي يحارب الأكفاء في بلادنا إنما يحارب الوطن» .

إن الذي يحدث - عندما يتأمر العجزة - أحد أمرين : أن ينزو الأكفاء ويعزلوا المجتمع ، وتغلب عليهم فلسفة التشاوُم وفكرة التصوف ، وذلك ما غالب على تاريخنا القديم . ! أو يهاجروا إلى بلد آخر يلتمسون فيه العدل والنصفة فإذا وجدوا فيه ما نشدوا ، جعلوا ولاءهم له ، وقصروا نشاطهم عليه ، وعلى ألسنتهم قول أبي الطيب :

وكل امرئ يولي الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

وفي عصرنا الحاضر استطاعت الولايات المتحدة أن تظفر بأكبر قسط من العقول المهاجرة ، فبدعمت تفوقها الحضاري بعقريات هائلة من كل قطر بعدها وفرت لها التقدير المادى والأدبى على سواء ..

وقد حضرت من بضع سنين مؤتمراً للطلاب المسلمين فى الولايات المتحدة ، وسمعت وأنا محزون حواراً بين اثنين من الشباب المسلم ، استنبط منه أن أعداداً كبيرة من الأطباء العرب تخدم فى أمريكا ، وأن حصيلة ذكائهما ومخترعاتها فى عالم الطب والدواء تذهب إلى شركات صهيونية متخصصة تضع عليها طابعها ، وتربح الألوف المؤلفة من ورائها ..

وفي إحصاء نشرته صحيفة الأهرام قرأت أن ٦٦٪ من العقول المهاجرة هى من العالم العربى ، فأدركت أن العالم العربى أخصب بقعة لرواج العملات المزيفة وصدارة النفوس المريضة وانتشار الكفایات المهيضة !!

والغريب أن الفكر الديني سادته هذه اللوحة ، فعندما كنت في مكة وقعت مهزلة احتلال الحرم .. و كنت بادي الغضب على ما حدث فإن الأولاد الذين تحركوا تحت شعار السلفية لا قدم لهم في الفقه ولا في السياسة ولا في شؤون الحياة ، كل ما لديهم بضعة أحاديث في قضايا ثانوية مع تصور طائش لحاضر المسلمين ومستقبلهم ..

و سمعني أحد الناس وأنا أتناولهم بسوء الظن والقول ، فاقترب مني ناصحاً ، وقال لى - ولست أشك في صدق عاطفته - الأفضل أن تسكت !

قلت : لماذا ؟ قال : إن أصحاب القلوب المؤمنة اتفقت رؤاهم على أن المهدى - عليه السلام - أن ظهوره ، ويوشك أن يخرج ليملأها عدلاً كما ملئت جوراً .. !

قلت : و أين هذا المهدى ؟ قال : معهم ! قلت وأنا أضحك من أعماق النفس : هذا الطالب الذي ترك الدراسة في إحدى الكليات لأمر ما ؟ قال : ليكن !!

قلت : عجباً لأمر أمتنا ، اليهود يقودهم حكماء صهيون المخترعون من أعلى المواهب . والنصارى يقودهم كرادلة م التجربون لهم في خدمة الكنيسة تواريخ ناطقة ..

والشيوعيون كانت تقودهم أنياب مفترسة قضت أعماراً متطاولة في الدرس والتطبيق ..

وأمة محمد وحدها هي التي يتولى قيادها طالب فاشل ! أهذا تفكيركم ؟ ! إن المسلمين - لطول رئاسة الأغبياء في مجتمعاتهم - فقدوا الحس بموازين الأمور ، ومعاقد المسؤولية ، فهم يحسبون المناصب حظوظاً عمياء لا أمانات بصيرة ..

وسوف يظلون دون العالم كله ما شاع بينهم هذا المنطق المشئوم ..

\*\*\*

## موازين العدالة في ظل الاستبداد السياسي

مع الاستبداد السياسي تضطرب موازين العدالة ، وتحتل أعمال القضاء! خصوصاً عندما يتصل الأمر بشخص الحاكم أو أسرته أو أتباعه أو أسلوبه في الحكم .

إن المعارضين يحتاجون اجتياحاً ، وقد تكتفى الحكومة بإبعادهم عن الوظائف الإدارية والتوجيهية إذا كانت معارضتهم في حدود الانحراف السلبي ، أو عدم الموالاة والتأييد .

أما إذا مسست المعارضة هيبة السلطة وبقاءها فإن التنكيل بالخصوم لابد منه ، وعندئذ يقع الاعتقال القصير أو الطويل ، والسجن الخفيف أو الشاق ، والضرب أو التعذيب ، والقتل البطيء أو السريع .. !!

لا قضاء هنا ولا قضاة ، ربما ألغت لجان خاصة يطلق عليها اسم المحاكم العسكرية ، وهذه تنفذ الأوامر الصادرة إليها بعد إجراءات صورية ومخزية ..

في إحدى المحاكم طلب الرئيس من المتهم أن يقرأ الفاتحة «مقلوبة» .. !!  
وفي إحدى المحاكم هذه غضب الرئيس ؛ لأن المتهم «سيد قطب» خاطبه بسيادة الفريق ونسى أنه فريق أول .. !!

و قبل أن نذكر طرفاً من المأساة نسجل طرفة للطريقة الساخنة التي تعلق بها العامة على منهج القضاء في ظل الاستبداد السياسي .. !

قالوا : إن جحا جاء إلى أحد الولاة يعرض عليه قضية تخصه ، فساق شكواه على هذا النحو . . . إن مولاى فيما أعلم ثوراً أحمر - فأجابه الوالى : صدقت يا أبا الغصن فما باله؟ قال : نطح بقرتي البيضاء فشق بطنه ، وأنحرج أمعاءها وقتلها على الفور !! فقال له الوالى : وما شأن الوالى بذلك وأى سلطان لى على الحيوان ؟ أتريد أن أعقاب الثور على فعلته؟ ألا فلتتعلم أن دم الحيوان هدر!

فقال جحا : صبراً يا سيدى وعفوأ ، لقد دفعتنى العجلة إلى رواية القضية معكوسه ، فإن بقرتى هى التي نطحت ثور مولاى فقتلته!

فقال الوالى : ويلك ، لقد تغير وجه المسألة ، أعد على القصة لأرى فيها رأى من جديد .

والغريب أن العدوان على ذيل بغلة القاضى كان مشار لغط سياسى فى بعض المؤتمرات ، أهوا ذيل كسائر الذيول؟ أم له مكانة خاصة؟

إننا نذكر هذه الدعابات بين يدى أحزان وألام أطاحت بحياة الآلوف وطمأنينتهم ، على طريقتنا نحن المصريين فى الصبح من كل شيء ، حتى من هزائمنا ومتاعبنا . !!

كان المجاهدون يكافحون حيفاً مضاعفاً من هنا ومن هنا . . . وأرسل أحدهم إلى الأستاذ مصطفى أمين يستصرخه كى يتكلم ، والحق أن الرجل كان عند حسن الظن فنشر ما بلغه ، وصدق فى تعليقه عليه عندما قال :

«وصلنى فى البريد منشور من دمشق ، فى شكل ديوان شعر ! ما أروع الشعر الهاوب من قبضة الجلاد . قافيته فيها رنين سجين هارب ، تخطى الأسلال الشائكة ، وغافل الحراس ، وقفز فوق الأسوار !

اسم الديوان «انتحار أىوب» للشاعر محى الدين اللاذقانى . وهو يروى قصة الشاعر الذى هرب من قلعة الطغيان والجبروت .

وهو يعاتب كل الذين صمتوا ولم يلعنوا الطغاة ، فلا يصنع الطغاة إلا العبيد ..

وهو يلعن الذين سكتوا عندما كانت تداس الزهور بالأقدام ، وعندما تحول الرجال إلى مطاييا يركبها المستبدون .

وهو يتحدث عن جلده الذى ألقت السكاكين دمه ، وهو يروى قصة الذين جاءوا بالليل وتسلقوا مقعد الحكم ، وتركوا الشعب ينام بغير وسادة ، لا تغطيه حرية ولا ديمقراطية ولا عدالة ، وإنما ريح من الحقد والضغينة وسفك الدماء ..

وهو يصور بلدًا لا يعيش فيه إلا الغربان ، ولا ترى فيها إلا الجنازات ، ولا تسمع فيه إلا صوت العويل على الذين يقتلون لأنهم أبوا أن يمشوا فى موكب العبيد ! فى زمان

التشفّى تنبّع الكلاب ارتياحاً ، ويصبح الجبن حكمة والشجاعة جنوناً والحمّاقة رجولة ..

وأقرأ شعر هذا الشاعر الذي لا أعرفه ، أعرف كلماته ، أحس بالسياط التي ألهبت ظهره ، أشعر بالكلمات التي استباحت ضلوعه . أسمع صرخاته في نفسي ، وفي نفس كل مواطن في منطقة الشرق الأوسط عاش في زمان حرم فيه من الحرية والديمقراطية والعدالة ومن حقوق الإنسان .

كلمات هذا الشاعر يعرفها كل إنسان حرم من حقوق الإنسان .. كل مواطن عاش في ظلام الحكم ، كل من عرف الدنيا بلا محكمة وبلا قاض وبلا ضمير . عندما يتحول «أعون الخليفة» إلى ذئاب تأكل جثث الأحياء ، وعندما يصبح الأبراء مصلوبين على الجدران وعندما يصبح صرائح المعذبين وعویل المضروبین غناء عذباً يشجى آذان الجلادين . عصر الرجال وهي تموت من جوع الحرية .

والشاعر يشكو من المدينة أنها لم تقم لتقتلع الطغاة من مقاعدهم ، وهو يتهمها بأنها تطيع الغزاة وتلبس أحلى الثياب لتغرى الحواة ، وتسكر في يومها مرتين ، في الصبح تشرب نخب الطغاة ، وفي الليل تغفو لتسلو وتنسى ، ويقول : «هذه المدينة ليست دمشق ؛ فإنى أراها تدوس بناتها ، وإن الدراویش یوتون فيها ، وحتى العصافير تهاجر منها» !!

لا أيها الشاعر المقيد بالأغلال ! أنا أفهم سخطك على مدینتك . ولكن لا تظلمها . إنها ليست مستسلمة . إنها مقيدة بالسلالسل والأغلال حتى لا تتحرك ، ومككمة حتى لا تنطق ، مغمضة بالعصابات السوداء حتى لا ترى الجرائم ! ولكنى أعرف الحرية ! سيجىء يوم تحطم فيه دمشق قيودها وسلالسها وستنتزع الكمامات من فوق فمها ، وسترتفع العصابة من عينيها ، وسوف تعود كما كانت دائمًا مدينة الحرية والأحرار ولن تنتحر يا أیوب .. وسيبقى كل أیوب في سوريا على قيد الحياة . !

وكلكم أیوب .. !!

يظن البعض أن العدالة تختفي في القضايا السياسية وحدها عندما يشعر الحكم الفردي بأن خصوصه يتحركون ، فهو يضرهم بضراوة شديدة ، ويجعل النكال بهم رادعاً لغيرهم ، وربما بقيت للعدالة ظلال في ميادين أخرى ..

وهذا ظن بعيد عن الواقع فإن الحكم الفردي يشيع في أرجاء المجتمع كله أخلاقاً هابطة . إنه مثلاً يقوم على تزوير الانتخاب ، ويعنى ذلك إشاعة الزور والرضا بنتائجها ، وإطباقي الأفواه دون قول الحق أو نصرته !

وهو مثلاً يحابي الأقارب وذوى الملق وينحرهم من المكانة المادية والأدبية فوق ما يستحقون . ويعنى ذلك بخس القيم وتأخير الأتقياء وتقديم الفجرة وجعل النفعية والارتزاق وحب النفس هي الفلسفة السائدة .

أى أن العطب يتغلغل من ظاهر الجماعة إلى باطنها ومن ظاهر النفس الإنسانية إلى باطنها ، فلا يبقى شرف ولا دين إلا بضعة مظاهر لا تسمن ولا تغنى من جوع ..

وقد رأيت صحافيين نبلاء أفرز عنهم أنباء التعذيب في القضايا السياسية ، وضياع العدالة في أثناء محاكمة المتهمين التسعاء ، فأورد الأسئلة الآتية وقال : هل يجاب عليها بنعم ؟

هل يقبح على الإنسان «المتهم» ويسجن بناء على أمر رسمي من مرجع قضائي ؟  
وإذا سبق مواطن بتهمة ما إلى المحكمة ، فما سناد هذه التهمة ؟ أهون نص قانوني صريح ؟

وهل تجري محاكمة هذا المتهم جهرة وعلانية بحيث يسمح لمن شاء أن يشاهدها ،  
بدل أن تعرض من التسجيلات المعروفة ؟

وهل يسمح لهذا المتهم بالدفاع عن نفسه أو توكيل المحامين الذين يختارهم للدفاع  
عنه ؟

ثم إذا حكم القضاء ببراءته هل يطلق سراحه ؟  
وإذا حكم عليه بالسجن هل يعرف مكان سجنه ؟ ويعkin أهله وأحباوه من زيارته .

وإذا حُكِمَ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ هَلْ يُسْمَحُ لَهُ بِكِتَابَةِ وَصِيَّتِهِ وَوَدَاعَ أَسْرَتِهِ وَالسِّيرَ فِي جَنَازَتِهِ؟  
الْحَقُّ أَنْ فِي هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ إِيمَاءَاتٌ خَفِيفَةٌ إِلَى مَا يَقُولُ، وَهِيَ تَوْجِهُ الْبَاحِثِينَ إِلَى  
تَعْرِفُ مَرَاحِلَ الْفَسَادِ فِي الْقَضَايَا السِّيَاسِيَّةِ، وَطُرُقَ الْإِجْهَازِ عَلَى الْمُعَارِضِينَ.

وَأَحْسَنُ إِجَابَةً عَنْ تَلْكَ الأَسْئَلَةِ مَا ذَكَرَهُ الْأَسْتَاذُ مُصْطَفِيُّ أَمِينُ فِي هَذِهِ الْقَصَّةِ . . .  
دَقَّ الْبَابَ فِي مَنْزِلِ تَاجِرٍ فِي دَمْشِقَ، وَفَتَحَ التَّاجِرُ الْبَابَ، وَقَالَ لَهُ ضَابِطٌ كَبِيرٌ فِي  
الشَّرْطَةِ: أَرِيدُ أَنْ أَحْدِثَكَ فِي أَمْرِ هَامٍ، قَالَ التَّاجِرُ: تَفْضِلْ. وَبَعْدَ التَّحْمِيَّةِ الْمُعَتَادَةِ، قَالَ  
الضَّابِطُ الْكَبِيرُ: إِنَّ وَزَارَةَ الدَّاخِلِيَّةِ السُّورِيَّةِ عَشْرَتِ فِي أَرْشِيفِهَا عَلَى مَلْفِ التَّاجِرِ  
السُّورِيِّ، وَاكْتَشَفَتْ أَنَّهُ كَانَ عَضُّوًا فِي جَمَاعَةِ الإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ فِي عَامِ ١٩٣٠.

وَتَوَقَّعُ الضَّابِطُ الْكَبِيرُ أَنْ يَغْمِيَ عَلَى التَّاجِرِ، أَوْ أَنْ يَرْكِعَ عَلَى قَدْمِيهِ طَالِبًا الْعَفْوَ  
وَالْمَغْفِرَةَ، فَعُضُوَّيْهِ الإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ فِي سُورِيَّةِ جُرِيمَةٌ فَظِيْعَةٌ يَسْتَحْقُّ مِرْتَكِبَهَا الإِعْدَامَ بِغَيْرِ  
مَحَاكِمَةٍ، وَلَكِنَّ التَّاجِرَ ابْتَسَمَ وَمَدَ يَدَهُ إِلَى درَجِ بِجُوارِهِ، وَأَخْرَجَ وَرْقَةً وَقَدَّمَهَا لِلضَّابِطِ  
الْكَبِيرِ وَهُوَ يَقُولُ: هَذِهِ شَهَادَةُ مِيلَادِيِّ وَفِيهَا أَنِّي وُلِدْتُ سَنَةَ ١٩٢٤ فَكَيْفَ أَكُونُ عَضُّوًا  
فِي الإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ سَنَةَ ١٩٣٠ وَعُمْرِي سَتُّ سَنَوَاتٍ؟ بَلْ كَيْفَ أَكُونُ فِي الْثَّلَاثِينِيَّاتِ  
عَضُّوًا فِي جَمِيعِيَّةِ الإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي لَمْ تَتَأْلِفْ فِي سُورِيَا إِلَّا فِي الْأَرْبَعِينِيَّاتِ؟

وَلَمْ يَهْتَزِ الضَّابِطُ الْكَبِيرُ وَقَالَ: إِنَّ مَلْفَ وَزَارَةِ الدَّاخِلِيَّةِ وَرْقَةً رَسْمِيَّةً لَا يَأْتِيَهَا الشُّكُّ  
مِنْ خَلْفِ وَلَا مِنْ قَدَامِهِ وَلَا يَجُوزُ الطَّعْنُ فِيهَا أَمَامَ الْمَحَاكِمِ. وَهِيَ أَصْدَقُ مِنْ شَهَادَةِ  
الْمِيلَادِ! وَقَبَضَ عَلَى التَّاجِرِ السُّورِيِّ وَوَضَعَهُ فِي السُّجْنِ!

هَذَا التَّلْفِيقُ هُوَ سَمَّةُ عَهُودِ الظَّلَامِ. فَعِنْدِ إِطْفَاءِ الْأَنْوَارِ يَظْهَرُ الْمَلْفُوقُونَ وَالْمَزُورُونَ وَالنَّصَابُونَ . . .  
وَيُصْبِحُ التَّلْفِيقُ أَسَاسَ الْمَلْكِ، فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُ الْطَّغَوَاتِ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ مَنْافِسِهِ فِي حُبِّ  
فَتَاهَةٍ أَوْ أَنْ يَقْتَنِصَ زَوْجَةَ مِنْ زَوْجَهَا، أَوْ أَنْ يَحْتَلِ شَقَّةَ تَعْجِبَهُ أَوْ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْ جَارٍ يَكْرَهُهُ  
أَوْ أَنْ يَتَقْرَبَ إِلَى صَاحِبِ جَاهٍ أَوْ سُلْطَانٍ، فَلِيُسَهِّلَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَلْفَقَ اتْهَامًا، وَيَزُورَ  
أَدْلَةً، وَيَخْتَلِقُ مَسْتَنِدَاتٍ، وَمَا أَكْثَرُ شَهُودِ الزُّورِ فِي عَصُورِ الْطَّغَيَانِ يَقْسِمُونَ عَلَى دَفَّتِرِ  
الْتَّلْفِيقِ وَيَدْعُونَ أَنَّهُمْ يَقْسِمُونَ عَلَى الْقُرْآنِ، وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ يَحْلِفُونَ بِحَيَاةِ الشَّيْطَانِ.

وكم من أبرياء ظلموا بلا ذنب ، وحكم عليهم بلا قضاة ، وسجنا بلا جريمة ، بل كم من شهداء قتلوا ودفنوا سراً لأنهم أبوا أن يعترفوا اعترافات كاذبة على أبرياء .

وليس سوريه وحدها التي حرمت حقوق الإنسان ، بل إن بعض البلاد توهمت أن الثورة هي أن تثور على العدالة وثور على القانون ، وثور على مبادئ الأخلاق ، وثور على كل حق من حقوق الإنسان . وفي كل يوم تصل إلينا من وراء الحدود قصص مرعبة عن جرائم ترتكب ، ونساء تغتصب ومذابح تقع ، وأموال تنهب وحقوق تداس بالأقدام وليس من حق المظلوم أن يحتاج . وليس من حق البريء أن يستأنف فالحاكم الفرد هو الشرطة وهو النيابة وهو القاضي وهو الاستئناف ، وهو النقض وهو الإبرام وهو المفتى الذي تحال إليه الأوراق قبل تنفيذ حكم الإعدام .

التلفيق هو العلم الذي يرفعه الطغيان لتعلم الدنيا أن العدالة في إجازة !!

قالت الضفدع قولاً ردته الحمام :

فِي فَمِي مَاءٌ وَهُلْ يَنْ—  
— طَقْ مِنْ فِي فِيهِ مَاءٌ  
عِنْدَمَا تَحْظِرُ حَرِيَّةَ الْقَوْلِ فَسِيمُوتُ حَقْ نَافِعٌ وَيَحِيَا بَاطِلٌ مَؤْذِنٌ ضَارٌ !  
سَتَخْتَفِي الْقَدْرَةُ عَلَى النَّصْحِ وَتَظْهَرُ الرَّغْبَةُ فِي الْمَلْقَ !  
سَيَذْبَلُ الْوَلَاءُ لِلْمَبَادِئِ وَيَنْمُو الْوَلَاءُ لِلْأَشْخَاصِ !

إذا كان سنا البرق يبدو من التقاء سحب شتى فإن سنا الحق يبدو من التقاء آراء شتى . لقد انتهى زمن المعصومين الذين يساندهم الوحى ، ولا يقولون إلا الحق ، أدرك العالم كله أن من جاء بعدهم مهما شمخت عبقريته فهو يخطئ ويصيب ، ويكتب ويضى . ولقد سجلت التجارب التاريخية أن أخطاء العباقة قاتلة ، وأن الشعوب تدفع ثمنها من دمها ومالها وكرامتها .. فلا يجوز أن يحكموا بلا معقب وأن يتصرفوا دون حسيب . وإذا وجب على الأمم أن تعتبر بآصيها ، فالآمة الإسلامية أولى أم الأرض بأن تحافظ ضد الاستبداد السياسي ، وأن تمنعه من قتل مستقبلها بعد ما أسمق ماضيها وعرقل خطوها وشل رسالتها .

وكل دعوة دينية لا تحسن الاعتبار بما كان فهى وبال على نفسها ودينها . ويجب أن ينصرف عنها المسلمون .. !!

## خاتمة

إنى أطلب من المسلمين أن يطرحوا الأسمال العقلية والاجتماعية التى أزرت بهم وحطت مكانتهم ، وأن ينصفوا الإسلام من أنفسهم حتى يستطيع هذا الدين الانطلاق فى الأرض ، وإسعاد البشرية ، وتحقيق الرحمة العامة للعالمين . . .

أما الاستمرار بحكم فردى يخنق الحرية ، ويستبيح الحرمات .

أو إيجاد قوارين تملك المال ولا تملك العدالة والرحمة .

أو الاستمرار ببطالة عقلية تهمل العمل والفكر وتحقر نتائجها ، وتوخر العباقرة وتقديم التافهين . .

أو استمرارنا بعوائل همها فى الحياة المتعة لا التربية ، والفوضى الاجتماعية لا الأخلاق الدقيقة والتقاليد الزكية .

أو استمرار القصور العلمى فى المادة وما وراء المادة . . أى فى شئون الدين والدنيا جمیعاً .

أو الاستمرار بدعابة يتساءلون عن الصلاة مع دم البعض فى قمصانهم . . ولا يتساءلون عن مستقبل أمة أرخص دمها . حتى أصبح سفكه لا يشير جزعاً ولا فرعاً .

إن الاستمرار بهذه الذاكرة المفقودة . . لاستفادة من التجربة ولا تنتفع من عبر التاريخ .

إن استمرارنا فى هذه الحياة على هذا النحو هو خزى الأبد . . فلما عشنا مسلمين حقاً . .

وإماماً ممّاتٌ لَا قِيَامَةَ بَعْدَهُ  
مَمَاتٌ لَعَمْرِي لَمْ يُقْسِنْ بِمَمَاتٍ!

محمد الفزالي

## فهرس الكتاب

الصفحة

الموضوع

٤

مقدمة . . بقلم المؤلف

### ● الباب الأول:

٥

● ضوء على تفكيরنا الديني

### ● الباب الثاني:

٣٧

● نظرة على واقعنا السياسي

٣٨

● مدخل

٥٢

● الاستبداد السياسي

٥٨

● حدود السمع والطاعة بين الحاكم والمحكومين

٨١

● كتابات خدام السلاطين

٨٦

● الانتخابات بدعة!!!!

٨٩

● حول تطبيق الشريعة

٩٨

● الاجتهاد الجماعي في العصر الحاضر

١١٤

● لماذا لا نقتبس من الديمقراطيات الغربية؟

١٢٢

● السوءة الكبرى

١٢٨

● ملزمة أو معلمة

١٣٥

● موازين العدالة في ظل الاستبداد السياسي

١٤١

● خاتمة